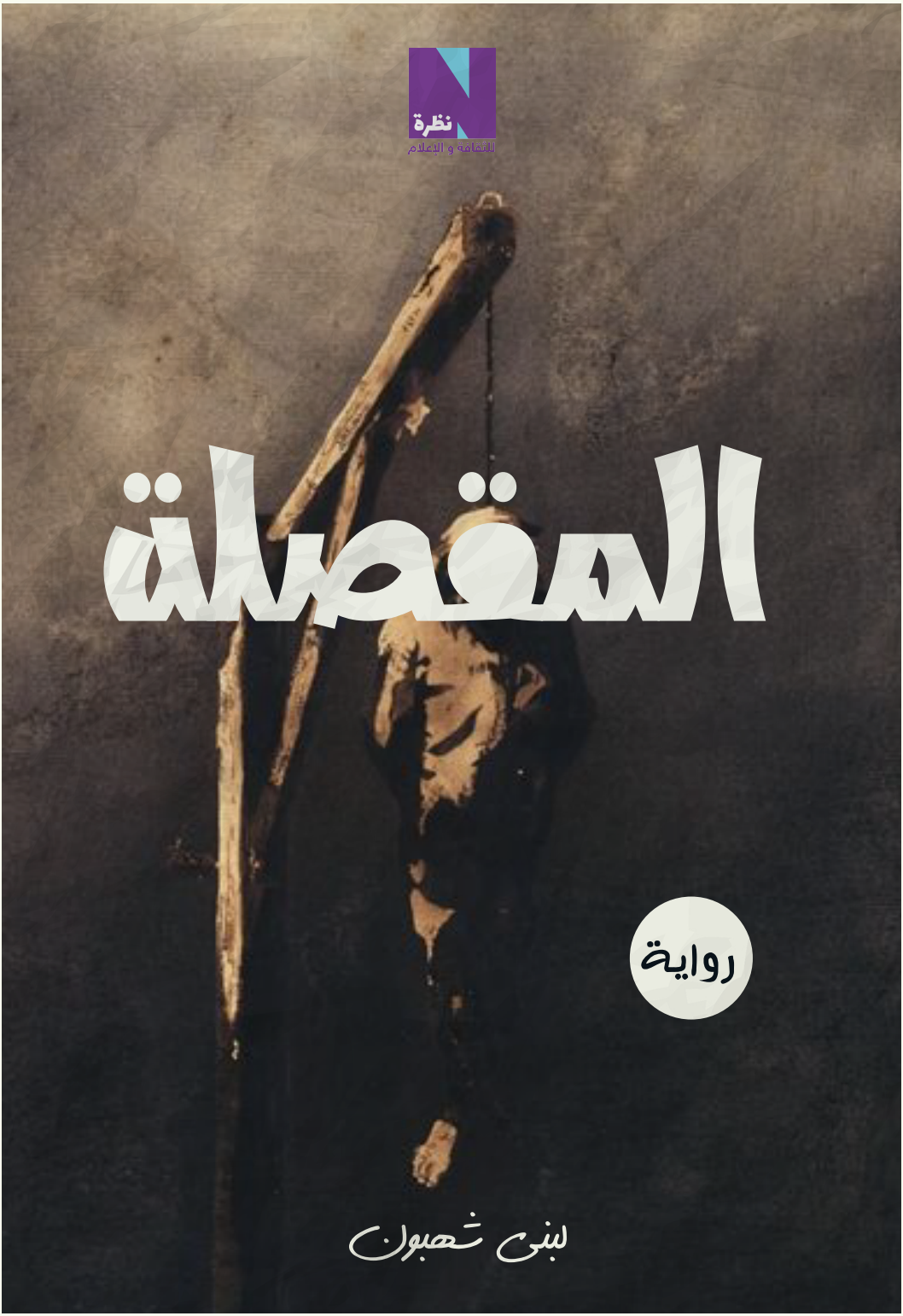
نظرة
للثقافة و التعلم
المقصلة
رواية
لبنى شهبون

لكم تشبهين الماء

يا روح الإنسان!

ولكم تُشبه الريـح

يا قدر الإنسان!

يوهان فولفغانغ فون غوته

المعزوفة 23

لا ألوان هنا منذ أن اقتحمت فكرة مسلولة رأسي، يقول طبيبي النفسي أنني شخص جبان لا ينبغي لأشباهه التكاثر؛ لم أنتبه إلى أنني قد صنعت بطريقة خاطئة إلا بعد أن توالت الأعطال مرافقة بنوبات هياج شعوري، وبرغبات محمومة كرغبتي مؤخرا في امتلاك كلب، لاحقت كل كلاب المدينة أحاول مطابقة الصورة في ذهني للصورة الحقيقية أمامي لكنني لم أجد كلبا أعرجا كما تخيلته، لا كلاب سليمة في بلدتنا، ثم تذكرت قول أمي لا أشياء حقيقية هنا..

يقول طبيبي أيضا بأنني إنسان مؤذ ومعد يحتمل أن ينقل عواطفه المهتاجة إلى أي كان من يلقاه؛ أربكني قوله فراقبتني بعدها بحذر ورأيت أنني كائن ماص لكل الأحاسيس الكامنة في عقول الغير، أفرغ من خاصتي وأمتلئ بهم، لم يستقر بي غير بغضهم وغضبهم وأساهم وصرت بدوري قابلا للامتصاص من آخر مثلي. توجست بعدها خوفا من الاقتراب من الآخرين فأنا لا أستطيع التفريق بين شبيهي المزيف والحقيقي الذي ينبغي الابتعاد عنه فقررت الابتعاد عني أيضا فأنا أشك بها أيضا.

زرت طبيبي النفسي للمرة الثالثة، كرر كلام المرتين السابقتين كالببغاوات لكنه أضاف نقطة لم أنتبه لها إلا بعد يومين؛ أشار إلى أنني كائن حر أكثر مما يجب، وعلي البحث عن رادع أو عن سلطة عليا لتحل هذا المشكل لكنني وجدت فكرة سقطت من العدم بدون إعلانات سابقة، عادة ما تسقط علي الأفكار بعد إحداث ضجة كبيرة تجعلني أحضر نفسي لما يمكن وقوعه علي، لكنها كانت هادئة جدا لدرجة أصابتني بالرعب؛ أحتاج إلى تقدير هكذا صرخت حتى أيقظت

جاري الستيني الذي بدأ بدوره في الصراخ حتى أسكت، فرحت جدا ورحت أبحث عن التقدير في عيون رفاقي والجيران وصاحب الدكان المجاور وكل سكان المدينة، ضيعت حريتي في البحث وتفردي أيضا ولم أجد تقديرا ولم أجدني..

بعد ثلاث وعشرين يوما سأغلق حسابات ربع قرن مضى وسأصير أقرب إلى الفناء مني الآن. وأنا في الثالثة عشرة رسمت خطتي لإنهاء هذا الوجود، وهاأنذا أقرب إلى ذلك من أي وقت مضى.

انبعثت بعد ثلاث عشرة ساعة من فراشي وأمام مرآة الحمام تجمدت، كل الأوجه لي، كل ما أراه حينما أغمض عيناي وحينما أنتقل في سفري الليلي وجهي، إلا أنني لا أتمكن من التعرف على انعكاسي في المرآة، صورتي التي أتخيلها لا تشبهني البتة ولا أعرف كيف استحوذت على ذهني على أساس أنها أنا، تلك الصورة الذي ما تلبث تنسيني وجهي الحقيقي.. أرى بأن ذكرياتي ضبابية جدا ومبهمة؛ وما إن يمر على حدث يوم أو يومان حتى ينتقل مباشرة ليؤنس ذكرياتي الأخرى غير أنني أتذكر بشكل واضح خلافا عن المألوف أن الوجه الذي لا يمكنني الشك في أنه لي وإن كان مخالفا لوجهي هو المسؤول عنها؛ كل أفعالي التي أجهل تفاصيلها حتى تلك اللحظة التي أقف فيها أمام المرآة تطفو على السطح فجأة فتتحول إلى عبء لا إلى ذكرى، عقلي القادر على الخلق يعجز عن إلجام المخلوق وإخماد سطوته علي لكن، ولا يفوقه براعة في هذا، يوصلني إلى ذروة الألم. كل تجاربي الفاشلة التي أودعتها مقبرة الذاكرة تبعث ببساطة حدوثها فتؤذي غروري الذي أصنعه في كل مرة من جديد وتشعرني بتفاهتي وإخفاقاتي المتوالية. أشك أحيانا في أنني شخص حقيقي لكنني لم أتمكن من إثبات ذلك بعد ولا أرجحه لأن للأشخاص الحقيقين وجه واحد وذاكرة صنعوها هم لا وجوها لا يدركون أصلها؛ أأكون الأصل؟ تفقدني الفكرة صوابي لأنها تحيل

مباشرة إلى أنني في الجحيم؛ لا أريد أن أكون شخصا حقيقيا وأفكر بشكل جاد في وأد أي فرصة يمكن أن ترجعني كذلك بإنهاء العقل الذي يحتمل أن يفكر في الأمر، لكن ماذا لو أنهيت وجودي أيضا؟ وماذا لو انفصل الوجهان عني وتركت بلا هوية؟ وماذا لو حظيت بالخلود لأنني بلا عقل؟ تذكرت فجأة مرة أخرى أنني قد صادفت بعض الخالدين قبلا وقد كانوا جميعا غائبي الوعي، مرحى! سأصير خالدا إذن وبعد ثلاث وعشرين يوما فقط.

أحتسي قهوتي في الشرفة وأنا أراقب نافذة الجارة وهي تلبس طفلها زيه المدرسي وصوتها يعلو على صوته توبخه على تأخره الدائم ثم تساومه على استيقاظه المبكر مقابل قطعة شيكولاطة، تذكرت عندما كنت أساوم محبة الله في الوقت الذي كنت أرى فيه أمي تساوم محبتي، فوعدته أكثر من عشر مرات أن أحبه للأبد إن قدم لي ما طلبت ولم تعدني أمي بشيء، أحببت الله دائما بالرغم من عدم منحه لي الكثير من المال ليتوقف أبي عن العمل، وعدم نقله مرض من أحب لي حتى لا يتألم مجددا، ورجوع أبي إلى البيت لأنني أريد أبا لا بنكا، ولم أحب أمي .

ظننت أن أمي امرأة طاهرة لكنها ضربت مرة قطة تبولت على عتبة الباب، كانت تقول أن الأشخاص الطاهرين هم من يسامحون دوما لكنها لم تسامح، وحينها صرت غير طاهر أيضا لأنني لم أعف على أمي التي أفسدت صورة السيدة الجميلة في ذهني؛ لكنني أحبها وإن رفضتني لأنني فتى غير مطيع، فأنا أمتنع على لبس ما تختاره لي وعلى أكل ما تريده لأنني أحب وأريد غير ما تحب وتريد، لو أحبتني أمي لانتقلت حتما عدوى أذواقها إلي.

أنا لا أحب الآن إلا الاله وربما سأتوقف عن ذلك أيضا عندما سيتم الانتهاء من تحويلي إلى مسخ، إلى كائن لا يطاق، ولن أحب أحدا بعدها على الاطلاق غيري، لن أكون إلا لي وما فضل إلا ثلاث وعشرين يوما إلا صبحا لأصير..

كنت شابا طيبا ومحبا، ناديت بما في عمري من بؤس إلى الحب، وآمنت بالإله؛ وقلت يوما ما كل إنسان إلا حبيب، والشجر والبحر وقط الجيران والسكير الذي يعربد كل ليلة في الحي فيلعنه المارة ،ويبصق عليه ابن الخباز الذي يتصدق كل يوم جمعة بعشر خبزات يابسة ثم يتفاخر بجوده أمام ابنيه وينصحهما بحذو حذوه ويضربهما يوم ضيعا نقودهما كما ادعا حينما قدما درهمين لمحتاج، وأمي يستحقون الحب، وقلت أيضا وأنا على مائدة الطعام بأن الحب يشبع الجوعى ثم أكلت كل ما أحب. "أحب العالم" هكذا رددت ربع عمري؛ وتعهدت بأن أهوى العالم أبدا إلى أن استيقظت يوما من نومي فجأة فوجدتني قد نسيت العالم ونسيت الحب. إلا أنني جددت عهدي وقلصت عمري ليتناسب مع حجم ما تبقى منه في جوفي. وهتفت بقوة أكبر وتنازلت عني في سبيل القضية وأزلت الشروط وآثرت المحبة عن كل ما سواها وجندت نفسي لأن أكون مخزن الحب الذي سيزيل الظلال عن الأرض، وقلت بأني صوت معذبيها الذين سأشاركهم بعقلي وقلبي كل ما مسهم من أذى إلى أن تتبلسم جراحهم ويغادرون مستنقعات البؤس التي أغرقتهم ثم استقليت سيارتي واتجهت نحو الشاليه المطل على المتوسط لأن الجو مغر بالمتعة والسعادة. أؤمن بالحب وبأن الحب وحده كاف لنحظى بالسعادة، ونسيت عمري وأنا أدافع على القضية في حضرة الغير الذي وددت مساعدته، إلا أنني استيقظت من نومي فجأة مرة أخرى لأثور على ذاتي وأفسح المجال لرغبتي التي خبأتها دهرا في أن أمارس كل أشكال حب الذات وأن لا أبالي بالآخر الذي ما زال يستقل الحافلات المهترئة التي

لا يصل ثمنها لثلث قيمة سيارتي، لكنني لن أتلذذ طويلا بإتيان ما أريد فعمري انقضى قبل ربع قرن من استيقاظي.

خرجت للتسكع في شوارع المدينة أسجل في ذاكرتي بؤس العابرين وكآبة الأزقة التي لم تستيقظ ضمائرها بعد والتي تبتلع جيوب الموظفين وشقاء الكادحين وأضحك، أضحك على تفاهة العالم وما ساقت إليه التفاهة أصحابها، مقززة قد صارت المدينة؛ تمتص دماء الجوعى وترهق قلبي وأبكي؟؟ ثم أضحك وأركل علبة سردين فارغة فأصيب قطا ليتأوه كأنه يقول ما الذي سيصيبنا بعد ونحن جوعى..

تذكرت صديقا لم يكن ليتحدث إلا ليقول لنثمل يا صديقي ؛ لا شيء هنا يستحق أن نعيه لا شيء..

عدت أدراجي إلى البيت أتعثر في أفكاري الحمقاء مجددا مرهقا بأحلام اليقظة التي ترافقني منذ أن كنت في الثالثة عشرة، والتي اعيش كل المشاعر الخاصة بها وكأنها حقيقة، صرت أخاف، أخاف جدا مما أراه من الحرب التي أحيا من دور الضحية من قصص بلا نهاية واضحة ومن الحب.. كنت أحب سارة وأعشق حبي لها، كانت قد استعمرت عيناي فلا رؤية لي سواها ثم قالت لنفترق فلم أعارض واعتزلت الحب..

المعزوفة 22

لست موسيقيا، إنني مختار من الاله لأعزف، يملي علي كل مقطوعاتي واحدة تلو الأخرى وينفخ من روحه في كل حلم لي ليخلق إحدى تحفي الفنية، أنا لا أألف الموسيقى بل أتبع نوطات الرب وأنقل ما يوحي لي به من ألحان، أسرع كلما استيقظت إلى غرفة العزف خاصتي لأدون ما يجود به حلمي كل ليلة من سطر أو سطرين موسيقيين..

أستمع لكل معزوفة مرة واحدة فقط وبصيغة أدق لا أتمكن من سماعها إلا لمرة واحدة، وكأن الاله يحرمني من الاستمتاع مرات متكررة، تهدى إلي موسيقاي في حلمي عذبة شجية ولا تصير في واقعي إلى آهات وأنات وصرخات متكررة في طبقات موسيقية مختلفة، لا أستطيع سماعها، فلربما يفوق جمالها قدرتي على السمع أو يعاقبني الرب فيحرمني من الجمال .

تأنقت وخرجت متجها إلى قاعة الحفل الموسيقي الذي سأشارك في إقامته، وضعت كماني أسفل كتفي وثبتته بذقني ، ووضعت القوس على الاوتار موازيا لفرسة الكمان ثم بدأت في العزف بانسيابية أدهشت الحاضرين، لا أدرك ذلك حقا فأنا لا أسمع شيئا جميلا لكنني أحس بقدرتي على ملامسة روح ووجدان الجمهور، سكونهم واهتمامهم بما يسمعون يجعلني أعتقد وكأنني أغويهم بموسيقاي غير أنني أخشى أن أسجن كنيكولو باجانيني الذي اتهم بتعامله مع السحر والشياطين، حييت الحضور ثم غادرت تاركا ورائي جمعا من الحمقى الذين يهتفون باسمي..

قد حققت لحد اللحظة مائة وثلاث وعشرين عملا موسيقيا وقد قال أحد النقاد بأنني أسحر الناس بعزفي المدهش، لكن معزوفة الشيطان التي فازت بجائزة إيكو للموسيقى الكلاسيكية قد اشتهرت أكثر من غيرها وقد قيل فيها أنها سحر، يا للحمقى!

هكذا كانت تردد أمي كل يوم: يا للأحمق عندما أتعبها بالسؤال عن الرب وعن قط الجيران وماسورة المياه وحذائها ذو الكعب العالي وعن الحب مرة واحدة. تقول أمي أنني شخص فاشل ويقول أبي أنني كبير بما يكفي لأكون رجلا لكنني موسيقي ليس إلا. تذكرت حينما تشاجرت وأمي ثم حزمت حقيبتي وغادرت لأثبت أنني موسيقي، بت في ست فنادق رخيصة لمدة عشر أيام، أهرب بعد كل ليلة أقضيها دون دفع ثمنها وأقضي اليوم أعزف على كماني في شوارع المدينة علني أجمع ما يكفي لشراء خبزة، أمدتني فتاة بخبزة في إحدى الصباحات، لقد كانت أكثر لذة منها حينما راقبتها لأغوص في تفاصيلها التي أثارتني وشدتني طويلا، تذكرت قول أمي : ليس موجودا وتساءلت لماذا تخاطبني بصيغة الغائب ، ألست موجودا؟ لو أحبتني تلك الفتاة لوجدت، لكنها قالت مرة أنت لست إلا.. بغطرسة وكبر فرغبت في الصراخ لست إلا موسيقيا لكنني بلا صوت ولا وجود.. فأهداني الله الموسيقى تعويضا على ما سلب.

المعزوفة 21

لم أفقد صوتي؛ بل بادلته بالموسيقى في معاهدة مع الرب فحوله إلى فقاعات.. واستثنى لحكمة أجهلها أوناي صديق طفولتي الوحيد وسارة، أما شرور البقية فقد جعلت كل محاولاتي لمبادلتهم أطراف الحديث تغمرها المياه كما تغمر رأسي كلما هممت بالنطق فأختنق، إنني أغرق.. لمحت سارة للمرة الأولى أمام السينما الوحيدة في مدينتنا تنتظر ما لا أعلم، راقبتها لأكثر من شهر، تقف وقتا طويلا ثم تعود أدراجها منكسرة وأعود أدراجي أكثر انكسارا لأنني أخشى أن أغرق إن حادثتها، التقت عينانا ذات مرة ثم قبلتها فأحببنا بعضنا ولم أغرق، سارة فتاة مليحة وذكية تحب الكاري وتكره القطط، قالت ذات مرة أنني لا أشبه القطط لذلك فهي تحبني لكنها قالت بعدها لنفترق، أصرت أشبه الهررة؟

التقطت صنارتي سمكة ضخمة أكبر من دودة القز بقليل لكنها أضخم ما اصطدته في حياة الصيادين التي أعيشها كل نهاية أسبوع، تذكرت يوم نسيت موعدي وسارة لتناول السمك المشوي فغضبت مني جدا إلى أن اعترفت لها بأن لي ذاكرة سمكة فضحكت.. في طريق عودتي للبيت التقيت بأوناي فأهديته سمكتي التي قررت سابقا أن أطبخها للعشاء وحضرت لي خبزا وجبنا وحضرت فيلما أراه للمرة الثالثة في ثلاثة أيام متوالية، ثم شرعت في عد الخرفان إلى أن أنام إلا أن إحداها قد تحولت إلى شيطان وظلت تلاحقني مسافة بعيدة ثم توقفت فتوقفت وظلمت عيناي وبدت قطعة دومينو تتوجه في الوسط ثم تسقط إلى الأمام ثم إلى الخلف، يمنة ويسرة ثم تكرر حركتها

كالمترونوم حتى ظننت أنها لن تنتهي أبدا، ووسط هذه الرتابة داعب اصبع أتى من يد مظلمة ذقني فصرخت : سارة.

الثالثة صبحا، وجدت يد اوناي على ذقني وصاح بي ما بك أتخاف مني؟ ثم قهقه ساخرا يا لك من طفل مدلل. لم أعطه يوما مفاتيح بيتي لكنني أجده مرات عدة في إحدى غرفه، لا أنزعج منه بل أجده مؤنسا لي، حتى أنه ردد لي ترنيمة الأمهات منذ آلاف السنين فتوقف إدراكي إلى أن انبزغ صبح جديد.

المعزوفة 20

لم أجد أوناي حينما استيقظت، لا أعلم بالضبط مواعيد حضوره وغيابه لكنه يأتي كلما توقفت على التفكير به وكأنه يصر على تذكيري: أنا هنا، يقتحم اوناي كل مساحاتي الخاصة؛ غرفة نومي، حمامي، مكتبي الخاص وعقلي، أتفاجأ من قدرته على معرفة كل أفعالي سابقها وحاضرها، وجدته يوما يتصفح دفتر يومياتي خلسة فقلت له يا لك من.. فأوقفني لا تجعلني أذكرك ببحثك السري في أغراض والدك وسرقة دفتر زميلك ورسائل الحب التي كتبتها لإيما وهانا وهيف واوكتافيا، لا تدعني أكمل ثم يضحك ساخرا ..

حاولت النهوض من فراشي لكنني وجدت جسدي متثاقلا لا يطاوعني فتصعب حركتي، جررت أطرافي إلى أن وقعت من السرير وحبوت كالرضيع أجر جسمي إلى أن خرجت من غرفتي فسمعت أصواتا قادمة من المطبخ فأكملت جري، وجدت أوناي واقفا أمام الموقد وبيده مقلاة ورائحة البيض المقلي شهية تفوح، مددت يدي نحوه أستنجده فاستدار وإذ بوجهه غير واضحة تعابيره، رمقني بنظرة خاطفة ثم حمل مقلاته وجلس على المائدة، وبدأ في عملية الغمس في أصفر البيض النصف مطهي كما نفعل دائما حينما نفطر سويا، انتهى من الأكل، حمل مقلاته واقترب مني بخطوات غريبة، رفع يده إلى أعلى ما يمكنه ثم ضرب وجهي ضربة جعلتني أفتح عيناي وقد نشف ريقي، توجهت إلى المطبخ لأشرب فإذ بي أجد أوناي أمام الموقد وبيده مقلاة ورائحة البيض المقلي شهية تفوح فصرخت إلى أن استدار فإذ به يضحك: ما بك؟ جلسنا سوية على مائدة الطعام وبدأنا في عملية الغمس...

لم يجادلني أوناي أبدا إلى يومنا هذا بل وافقني في كل قول وشاركني تفاهاتي وأفكاري تجاه العالم والحب وأبناء المدينة وعلب السردين وسارة، شككت أحيانا في أننا نتنافس في حبنا لها لكنه واجهني ذات ليلة بعدما أيقظني مفزوعا وبابتسامته المعتادة كالجوكر قال لي لا تخف سارة لك، أردت قول هذا فقط فعد لنومك، فبت مطمئنا وأحببت شهامة صديقي.

يقول أوناي أنني سجين وأوناي لا يكذب، لكنه يصر على التهرب من تساؤلاتي؛ ما الذي يقصده؟ سجين منذ اثنتي عشرة سنة يكرر دون توضيح كالعادة، لم يكف عقلي الصغير لفهم المغزى لكنني سأفهم يوما ما .

رافقت أوناي إلى الباب وتكومت على الاريكة وشغلت فيلما عن الحرب العالمية الثانية، حلمت مرة بأنني جنرال وقد حوصرت في إحدى الثكنات مع عساكري من طرف بعض الميلشيات بلا ذخيرة، خلفت إحدى القنابل كل رفاقي قتلى فصرت وحيدا، حاولت الاختباء لكن أحد الرجال وبيده سكين كبيرة قد وجدني فتوسلت إليه أن يقتلني بالبندقية فأنا لا أريد أن أطعن أو أذبح فانفجر ضاحكا ثم قال لي أتريد بعض الحشائش؟ فقلت أنا لا آكل الحشائش، ثم قال كل الحشائش أو تذبح، فما كان مني إلا أن أطيع فقال أبشر لقد نصبناك زعيما لنا وقد أقاموا لي حفلا للبيعة وقد كان اللحم المقدم خلالها ألذ لحم أتذوقه في حياتي، علمت فيما بعد أنه لحم رفاقي فتقيأت ثم استيقظت فجأة والقيء قد ملأ وسادتي فتقززت. سردت حلمي على أوناي فقدم لي تحية عسكرية وبوجه جاد قال : يحيا الزعيم، أ زعيمنا واقع في الحب؟ فالحرب في الحلم حب، وتلك كانت بدايتي وسارة حيث لاوجود للمنطق.

وقد حلمت مرة أنني محتجز قسرا في الحمام وعقوبتي أن آكل التفاح بلا قشرة، حاولت الهرب فتبعني محتجزي على مزلجة وأمسك بي وأعادني ثم عفا عني، سألت أوناي عن ذلك فقال إنك محتجز في الحب والتفاح للدلالة على آدم، لا أعلم ما منطق أوناي في تفسير أحلامي ولا كيف يغيب منطقي أثناء نومي لكنه يصيب كل مرة في معرفة أحاسيسي .

كان كل تركيزي مع الفيلم إلى أن أفزعني صوت الرعد، لطالما أخافني فكنت أختبئ في دولاب الملابس عندما كنت طفلا، ومنذ أن صادقت أوناي فكلما أرعدت وجدته قريبا مني يعانقني ويهمس في أذني لا تخف، لقد كنا جيرانا في طفولتنا .

وإذ به جرس الباب يقرع، وجدت أوناي مبلولا وما إن رآني حتى قال لا تخف ثم عانقني، لهذا أحبه لأنه لا يستهزئ بالمطلق من مخاوفي عكس أمي التي لطالما سخرت مني.. أمضى معي هذه الأمسية نلعب العاب الفيديو ونأكل رقائق البطاطس إلى أن غفا على الأريكة فغطيته ثم استلقيت أفكر في بدء البشرية، ماذا لو لم نكن البشر الوحيدين الذين مروا على هذه الأرض وكانت هذه البشرية مكررة مرات غير معروفة العدد، ماذا لو انقرض أسلافنا بعدما تطورت حضاراتهم أيما تطور ثم تمت الإعادة من جديد منذ الإنسان البدائي إلى عصرنا الحالي، ماذا لو لم يكن وجودنا محددا في مرة واحدة وكنا نحن من انقرضنا سابقا ثم أعدنا من جديد لنعمر الأرض عددا لا متناهيا من المرات، ماذا لو لم نكن؟

المعزوفة 19

انبلج صبح جديد وأول ما فكرت فيه أن أخيط طقما، كيف لي ألا أكون أنيقا وأنا أحضر بكل طاقتي ليومي الموعود، تأبطت معطفي وخرجت، وضعت مقاساتي ثم غادرت دون أن أنبس ببنت شفة، ثم اتجهت نحو محل لبيع الأحذية وطلبت من صاحبه الأجود والأغلى لآخذه فكان لي ما طلبت، وفي الحقيقة أنني قد رأيت حلما شهدت فيه يومي ذاك بملابس رثة أظهرتني من العامة الذين يرتادون المقاهي الرخيصة والأسواق الشعبية وصالونات الحلاقة المهمشة، لن أكون مثلهم، فما رأيت من حل إلا أن أتأنق، لا يليق بي غير ذلك، ورأيت في حلمي أيضا أوناي يتوعدني بالعقاب إذ أنا فعلت ما أنوي فعله، إنني أوقن دائما بأنه يعرف نواياي، غير أن وجهه الخافي الملامح قد أرعبني. لكنني لم أجده حينما استيقظت فلربما قد غادر ليلا، من يعلم متى يظهر ومتى يختفي ..

التقيت أثناء تسوقي بسارة لكنها لم تلاحظني، أحسست بقلبي يكسر كلحظة فراقنا الأولى وحرت بين رغبتي في الحديث معها ورغبتي في الاختفاء لكنني غادرت، وكان للإله رأي آخر إذ رغب أن نلتقي مرة أخرى في المطعم الذي ارتدته لأتناول غدائي لكنها مرة أخرى لم تنتبه بل التهت في الحديث مع صديقتها، سمعت صدفة دون أن أنوي التنصت عليها أنها تحكي عن حبيبها المخادع الذي تركها دون أن يكون لذلك سبب واضح، قال لنفترق ولم يترك لها فرصة التساؤل لماذا، وبين كلماتها المختلطة بالدموع كنت أتساؤل كيف لها أن تجد حبيبا غيري بهذه السرعة إلى أن سمعت اسمي متبوعا بقولها لقد كان موطني وحارسي وملاذي، خنقتني اللقمة في فمي وسعلت حتى انتبهت وبين

دهشتها ودموعها خرجت مسرعا أتعثر في حذائي غير مستوعب لما حصل قبل برهة أو بعدها ، لا أدري، انكفأت على وجهي لا أعرف لطريقي وجهة مسدلا الستار على عقلي المنطفئ، تركت روحي عند سارة وهربت بجسدي فما وجدت نفسي إلا قد تكورت فوق السرير تحملق في اللاشيء غير مدركة للعالم المحيط بها، بقيت لساعات طوال مخدرا لا أعرف لنفسي مخرجا، غير أنه وكأنما استعاد عقلي نشاطه فجأة وجدت نفسي واقفا مستعدا للتوجه إلى سارة. ما إن فتحت لي الباب حتى انفجرت باكيا، فلم تتوانى عن عناقي ثم وضعت يداي بين راحتيها فبعثت في نفسي سكينة لم أشهدها منذ أن افترقنا ودون جلاء عدنا حبيبين متناسين ما مضى ومتعاهدين على الالتحام الأبدي بين روحينا.

سارة فتاة جمعت بين الحسن والبياض والطيبة، ووجه طفولي لا يوحي بأنها قد بلغت الخامسة والعشرين وأنها من الدراسة قد حصلت على الباكالوريوس في الطب، إلا أن مسيرتها الدراسية لم تكتمل بعد فما يلزم من السنوات لتتم تخصصها في طب الباطنة كثير، وغير أنها مجدة إلى أقصى الدرجات فإنها تضع دراستها ومهنتها في أولى اهتماماتها، فإضافة للساعات الإجبارية التي تقضيها في المشفى كمتدربة ثم كطبيبة كانت تضيف أخرى كمتطوعة، تقول دوما: أنا لن أخونك إلا مع الطب ثم تضحك حتى تظهر نواجدها وينار وجهها فتبعث في نفسي الكثير من الصفاء الذي أفتقده في غيابها، لكنها تفرض علي سماع يومياتها غير المنتهية في المشفى بالرغم من أنها تعلم مدى اشمئزازي مما تذكره لكنها تغيظني و تضحك وتختار لذلك أوقات تناول الطعام فأكرر ككل مرة ودون جدوى توقفي قبل أن أرجع ما بمعدتي أمامك، غير أنها لا تبالي بذلك وتتم حديثها عن الأصابع المقطوعة و الدمل والجروح العميقة ومحاولات الانتحار وحالات العنف المتكررة ويديها التي تلطخت بالقيء... أتساءل كيف ليدين

رقيقتين أن تحملان المشرط وتلمس مختلف أنواع القذارة ثم تخرج نقية كما أعرفها الآن .

لم يحصل بيننا خصام قط غير افتراقنا بدون سبب ورجوعنا بدونه أيضا، وعدنا ألا نغضب من بعضنا ما يفوق الأربع وعشرين ساعة وأن لا ننام منفصلين أبدا بعد زواجنا وإن كنا متخاصمين، وأن لا نخفي على بعضنا البعض شيئا وأن نكون صادقين وصديقين عمرنا بأكمله، تعاهدنا على الحب، فحبنا هذا غير الحب الذي عشته قبلا، حبنا الخاص الذي لا نشرك فيه أحدا.

مرت ساعة ونحن واقفان على الباب غير منتبهين لانفلات الوقت منا وغير آبهين، أتأمل قسمات وجه من وكلتها أما لطفل في الخامسة والعشرين، أولتني العناية منذ أن التقينا وفهمت حاجياتي دون أن أعلمها بذلك، نصحتني مرة بأن أقابل طبيبا نفسيا وقالت أنني أكثر مثالية وكمالا من أن أكون انسانا عاديا لذلك يجب أن أحتاط، فلربما بي عطب وجب إصلاحه، وسارة لا تكذب وانا أثق في سارة فكان لي معه أول موعد تلته أخرى شهرية لا يعجبني خلالها إلا فترات انتظار دوري، أجالس فيها المكسورين من أمثالي والكاسرين، مسلوبي الإرادة والسالبين، الطغاة والمجرمين الذين جعل منهم تفككهم العقلي حملانا وديعة، و المختبئين في معاطفهم والجاحظة أعينهم حقدا، السدج منهم والمتوحدين، ويؤنسني في جلستي هاته مع هؤلاء الرفاق، رفاق وحدتي، سمفونية موتزارت الخامسة والعشرين التي تنبعث من مكان من هذه الغرفة أجهله، موكدة بذلك إيماني العميق بسنتي الخامسة والعشرين، حيث سأعاين حالة الانتهاء الكبرى، انعتاقي من وطأة الزمن والمكان، وتخليص رقبتي من مقصلته، لن أعدم، سأكون الفاعل لا المفعول به، وسأتقدم مصيري وسأكون.

المعزوفة 18

وضع السكين على رقبتي وأمرني بالركوع والتضرع للإله ليرحمني قبل إعدامي لسبب أجهله، ثم ظهر جمع من الأطفال يتوافدون من كل حدب يضربون على الدف ويرددون "كن به" آلاف المرات وبينما هم يقتربون برزت من بينهم طفلة في العاشرة تصيح أن امنحوني ذلك الشرف، وحدا العشرات حدوها: آتونا به، ثم بدأوا في الدوران حولي ويقتربون أكثر ثم توقفوا فجأة وركع الجميع وأخفضوا رؤوسهم ووضعوا قبضتهم على قلبهم وتراجعوا إلى الجوانب فإذ بها حسناء تتقدم وصيفاتها اللواتي يحملن بين أذرعهن شعرها الذي تجاوز طوله قامتها الفارعة، وتبرز أثداؤها شاهقة، لا تخفي من جسدها إلا عورتها بأوراق العنب، وقد سمعت فيما بعد أن الزعيم يتجرد من كل ما هو دخيل على جسده ليسخر نفسه لخدمة القبيلة زاهدا في كل ممتلكاته، توقفت أمامي وقد توجست خيفة من أن أرفع رأسي فوضعت راحتها على شعري وقالت بصوت جهوري إنه تحت حمايتي ولقد اتخذته ولدا فمن حان وقت قطاف رأسه فليلمسه، ثم أمسكني حارسان وقاداني وراءها إلى أن بلغنا كهفا قد بلغ طول مدخله العشرين مترا وأودعاني أمامه وقالا أن ادخل، فمشيت وراء الزعيمة التي لم تستدر طول الطريق إلى أن بلغنا بحيرة اختفت بداخلها ثم أمرتني إحدى الوصيفات أن ادخل فما كان مني إلا أن أطيع، غاب رأسي تحت الماء فاختنقت، وقد حاولت الصعود فوجدت سطح الماء قد صار صلبا ولم أجد السيدة، أغمضت عيناي ثم فتحتهم فوجدت نفسي أتنفس نفسا عميقا جدا، وضعت يدي على وجهي فوجدت الدماء تغطي خداي والوسادة مشبعة بالدماء، تفحصت وجهي ثم جسدي بحثا عن المصدر فلم أجد جرحا وقد قرر بأنه دم مجهول الهوية، نظرت

إلى المنبه فوجدتها الثالثة بعد الزوال، أ و كيف نمت الليل بطوله والصبح بطوله ولم أنتبه، ونسيت حفلة أنا ضيف شرفها ستبتدئ بعد نصف ساعة، حملت كماني وإذ بي أجيء وأذهب كرقاص الساعة أفكر في ما إذا وجب علي أن أشد رباط حذائي الأيمن أولا أم الأيسر، ولعله وجب علي التريث ريثما تغادرني هاته الحيرة المفاجأة القادمة من مكان أجهله لتعكر صفوي، وإذ بأوناي يدق الباب وكان أول ما نبست به شفتاه : لنفعل ذلك وانحنى ممسكا برباط حذائي الأيسر ثم توقف منتظرا أن أمسك بالأيمن فربطناهما في نفس اللحظة ثم ضحكنا منتصرين ثم غادرت مسرعا، إلا أنه بعد أول خطوة خارج البيت قد وقعت متعثرا في رباط حذائي الأيسر المفكوك، فلربما لم يحكم أوناي إغلاقه، لملمت نفسي خارجا ببعض الرضوض وواصلت طريقي إلى صالة الحفل، وقد حضرت في اللحظة التي ينادى فيها بإسمي للصعود على الخشبة، ارتقيت الدرج ببطء ثم انتقلت إلى بقعة مضاءة قبالة الجمهور، وقفت هنيهة ألتفت يمنة ويسرة ثم جمدت والجمهور يهتف باسمي، بدأت فجأة في العزف دون مقدمات وفتح الجميع فاه، يلتفت الجميع نحو بعضهم البعض غير مصدقين لما وقع في سمعهم من ألحان سماوية مبعوثة من الاله، ركع الحضور جميعا والحناجر تتهيء للصياح لكن لا صوت يخرج في حضرة موسيقاي، لقد صاروا كالمسحورين غائبي الوعي يتمايل جسدهم وعقلهم مع النوطات الصادرة من كماني، "غيوتينا" معزوفتي الجديدة التي لم يسبق لغيري أن سمعها، إلا مرة في الحلم، سمفونيتي التي ستطبع في عقول العالمين جميعا والتي لن تنسى أبدا، "المقصلة" أحنت رقاب كل حضوري الان خشوعا وكل المدينة فيما بعد، وأعلنتي درجات على باقي الخلق، هي التي تجعلني السيد وليكن الكل عبيدا لموسيقاي، أنا السيد الوحيد ولا واحد غيري إلا الاله، تركت الجمهور مشدوها وغادرت الحفل .

همت بوجهي الى قصر العدالة لأحتج، فلي الأحقية بالسيادة أكثر من الجميع، ينبغي أن أكون الحاكم الوحيد لهذه الأرض، جلست أمام البوابة معرقلا مرور الداخلين والخارجين، ورفعت لافتات كتبت عليها مطالبي فأنا لا أستطيع التحدث، كتبت بأنني الرجل الوحيد المستحق لقيادة هذه المدينة وفي أول فرصة لي سأتولى الحكم، فليسقط النظام ولتحيا العدالة وليحيا السيد، تجمع الناس حولي يهمهمون ويهمسون فيما بينهم أهذا هو منقذنا، أبتسم في وجوههم واحدا واحدا وأشعر بالفخر في عيونهم، إلى أن تدخل شرطيان ليفظوا الجمع، تأبطني كلاهما واقتاداني رغما عني إلى مركز الأمن رغم انتفاضي المستمر وهياجي الذي أخمدته ضربة من عقب بندقية أحدهما، وأمام أحد الضباط أوقفاني، قيدا يداي وتركاني وجها لوجه مع رجل مجهول يبدو على قسماته الحنق بعدما همس له أحد الشرطيين قولا أجهله؛

سأل من أكون؟ لكنني ظللت أحملق في وجهه أتساؤل كيف لعاقل أن يحلق ذقنه ويترك شاربه طويلا، كيف يعجب بنفسه إن نظر في المرآة، هزني صوته الحاد بسؤال ثان: كيف تجرؤ أن تنتحل صفة الحاكم؟ لكنني واصلت التحديق في الفراغ ببلاهة، غير صيغة سؤاله ثم ضرب بقبضته مكتبه وصرخ في وجهي: من تكون لتطالب بالحكم، لتهدد أمن الحاكم وطمأنينة هذه المدينة، من منحك الترخيص لتنظم جمعا تتزعمه تطالب فيه بإسقاط النظام؟ ثم يزداد حنقا وحمقا ويسأل من يدعمك وما المنظمة التي تقف وراءك، من زعيمك؟ لم أتململ قيد أنملة وقفت فاتحا فاهي مصدوما من التقليل من قدري واتهامي بأنني مسير، أنا سيد نفسي ولست سيدا لأحد، ولم أجب، نادا على الحارسين وقال لهما بأنني لست إلا أبلها أبكما وطلب منهما أن يستضيفاني ليلة لعل حمقي يحط في أماكن أخرى غير السياسة، احتجزوا كماني وأودعوني بعد فك أغلالي زنزانة تحت أرضية تطلب الوصول إليها النزول عبر سراديب مظلمة تخفي بين جنباتها الجرذان

والعناكب وبعض الحشرات الضخمة التي أجهل هوياتها، صرير الأقفال الحديدية يضفي هيبة للمكان فللسجون أيضا معزوفاتها الخاصة. طول الزنزانة متران وعرضها متر ونصف أما علوها فلا يسمح للشخص بالوقوف فبالإجبار يجلس أو يستلقي، زنزانة فارغة تماما من كل أشكال الحياة غير صوت خفيف يصدر بعد الطرق على جدرانها التي ملأها العفن، اتكأت على ذراعي حتى أصابها الخدر فانتقلت للذراع الأخرى وبقيت على هذا الوضع إلى أن تبادرت إلى ذهني فكرة لأحارب هذا الملل الكئيب، ماذا لو نتمشى قليلا لنريح أرجلنا؟ أغمضت عيناي وطفقت أسير جيئة وذهابا من جدار الزنزانة الأمامي الى الخلفي؛ واحد اثنان ثلاثة أربعة، واحد اثنان.. أفكر في كم خطوة تلزمني لأكمل ليلة واحدة، ظللت على هذه الحال ثلاث ساعات إلا ربع فارغ الذهن وطاردا لأي فكرة من الممكن أن تقاطع خلوتي إلى أن انسلت واحدة بشكل فجائي: سأفرض لباسا موحدا على كل سكان المدينة بعدما سأتولى الحكم، شاهدت في برنامج وثائقي إحدى الجزر المليئة بالبطاريق وقد أدهشني تناسق الألوان بينها ووحدتها المتناهية في الدقة والمنقطعة النظير، وسأقتدي بأصدقائي البطاريق وإن كانت صداقة من جهة واحدة لبناء منطقتي الخاصة التي لا سيد لها إلا أنا.

المعزوفة 17

استيقظت على صوت الحارس يصيح: أطلق صراحك، قادني اثنان إلى أحد المكاتب لأوقع محضرا ثم أعادوا لي حاجياتي وغادرت، آلمني ضوء النهار في عيناي اللتان اعتادتا ظلمة الزنزانة، أ فليس الانسان بطبعه كائن متعود؟ و أكثر ما آلمني ظهري الذي بات مقوسا. حركت الدماء في قدماي بصعوبة وبخطوات ثقيلة أتعثر في حذائي كأنني أتعلم المشي لأول مرة، كيف نمشي؟ ما مدى التعقيد التي تتطلبه عملية بسيطة في ظاهرها كهذه؟ كيف تتمكن سيالاتنا العصبية من نقل رغبتنا في ثني ساقنا الأمامية ثم بسطها والاتيان بالخلفية بعد ذلك وهكذا دواليك دون أن نشعر برغبة في عد حركاتنا؟ راودتني رغبة مستثارة في التعرف على دماغنا أكثر وبالاتجاه لأقرب مكتبة لأزود نفسي بالمراجع اللازمة لكنها سرعان ما أثبطها عيائي العميق بعد ليلة قاسية في السجن ونسيتها بعد ذلك. ارتميت على فراشي دون أن أخلع حذائي وأدهشت لأول مرة بمدى نعومته، نمت ساعة وبضع الساعة إلى أن أيقظني اتصال هاتفي من سارة:

ءهل أنت قريبها؟ لم أجب، لقد تعرضت لحادثة اعتداء وترقد حاليا بالمشفى الذي تعمل به.

وجدت نفسي خارج المنزل قبل أن تتم حديثها إلا أن زحمة السير قد أبت أن أصل في وقت أبكر من الذي وصلت فيه. وجدت سارة ممددة فوق أحد الأسرة وبجانبها محلول ملحي موصل بذراعها، ما إن اقتربت منها حتى عانقتني حتى كادت من شدتها أن تخنقني، كيف لشخص بهذه القوة أن يعتدى عليه؟ علمت فيما بعد أن أحد المختلين العقليين الفارين من مشفى الأمراض النفسية قد وجد طريقه إلى

مكتب سارة، فدخل متسللا وأغلق الباب من الداخل، وبين ضحكه و بكائه الهستيريين يتوعد سارة بالقتل، ثم يلعن الأطباء ورجال الدولة والحاكم أيضا، غير أنها قد فطنت إلى استدعاء الشرطة عن طريق الضغط على الزر المخفي في مكتبها دون أن تثير انتباه المهاجم، لم تتأذى لحسن الحظ جسديا لكنها ارتعبت رعبا شديدا جعلها تفقد وعيها لبضع دقائق كما حكت، مكثت معها لغاية موعد مغادرتها المشفى فأوصلتها إلى بيتها ثم طرت إلى عشي لعلني أنام قليلا فمن التعب ما عانيت اليوم الكثير..

جوهان واحد إلى جوهان ثلاثة: طائرة بدون طيار على علو 4 أمتار على الساعة الثامنة.

جوهان ثلاثة إلى جوهان واحد: علم

بووم، صوت انفجار ضخم عم المنطقة، لقد نجح الملازم الأول في إسقاط الطائرة.

جوهان واحد الى جوهان ثلاثة: أحسنت عملا أيها الصقر.

جوهان واحد إلى الجميع: لقد طهرنا المكان وأبدنا العدو، يمكننا إخراج الناس من الملاجئ فلا خطر بعد الآن.

الجميع: أمرك ايها القائد.

لقد نصبت قائدا على فرقة القوات الخاصة هاته، وكللت أول عملية عسكرية أقودها بالنصر، سميت على اسمي لأن القائد الأعلى قد رآني في حلمه مستشهدا، والمستشهد عادة تسمى العمليات باسمه، لم أمت بعد لكنني سأموت، هكذا قال القائد وأنا أطيع، فلأمت..

اجتمعت برفاقي لكي أعلمهم برغبة القائد فوافقوا بالإجماع على قتلي، واقترحوا جميعا طريقة لذلك، ستتزوج، هكذا قالوا.

أقاموا لي حفل زفاف ضخما إلا أن العروس لم ترقني، لقد قالوا ستتزوج شجرة، لو تم تغييرها بزهرة صبار أو يانسون طازج أو شجرة الكاليبتوس لكان أكثر أريحية لي، لكنهم أصروا على زواجي بشجرة تفاح، أذعنت رغما عني لأمرهم فكله في سبيل القائد بالرغم من حساسيتي تجاه التفاح، وبمجرد أن لمست جذعها حتى حكتني يدي ثم انتقلت الحكة إلى باقي جسمي فصرت أحك جلدي حتى أسلت دمي، أتلوى فوق الأرض ألما وحكة وأطلب المساعدة من الحاضرين لكنهم كالبلهاء قد واصلوا الرقص دون أن يعيروني أي اهتمام، ثم شعرت بجسمي يتفتت، سقطت رجلي ثم أذني وأنفي ثم ساقي الأخرى وكل قطعة تسقط مني تبتلعها الأرض إلى أن فضل رأسي وحده ككرة بيسبول، لم ينتبه لي الحاضرون إلا حينها وقد أمسك كل منهم بشوكة وسكين ثم اقتربوا رويدا رويدا، إلى أن غرس أول الواصلين شوكته في عيني ثم ابتلعها وأتى آخر إلى أن لم يتبقى مني إلا إحدى عيناي تدحرجت بعيدا إلى أن دعسها طفل يلعب بالطائرة الورقية فاسودت رؤيتي ثم استيقظت مذعورا، تحسست جسمي فإذ به سليم لا ينقصه أي عضو فبثت الراحة في قلبي.

أخذت حماما لعلي أستفيق ثم جلست على الشرفة وكأس القهوة بيدي اليسرى وكتاب الأمير بالأخرى، أتعلم أصول الحكم وفرض الطاعة والولاء، أؤمن إيمانا تاما بالديمقراطية فالحكم للشعب وأنا جزء من الشعب إذن فالحكم لي، وحدي من أستحق ووحيدا سأبقى فالانتقاء الطبيعي سيختارني السيد، سيد الأكوان كلها، إنني المختار لأوحد المدينة وأنشر الحب وأبيد كل معارض، سأحقق السلطة المطلقة وسأحكم من يريدني ومن لا يريد لجهل بحكمة تولي الحكم،

وسيحبني الجميع وسيحبون الاله ليبارك لنا في مدينتنا فغياب الدين بغض النظر عن حقيقته أو عدمها يؤدي بشكل حتمي إلى حالة كبرى من المجون والانحلال الأخلاقي، وهذا لا يعني بالتأكيد أن غير التابعين لدين معين منحلون وإنما ضعف الوازع الأخلاقي لأغلب المؤمنين أو غير المؤمنين لا يمكن أن يعوض إلا بوجود رادع وهذا ما يوفره الاله عموما دون الحديث عن الحالات الشاذة، إذ لاحظنا جيدا فربما سنتوصل إلى أن أغلب سلوكاتنا مشروطة ونادرا ما سنجد سلوكا لذاته وبذلك فإن الدين متمثلا في الاله يشكل لدى العامة هذا الشرط؛ الخوف من العقاب و الطمع في الجزاء اللذان يزيلان الفراغ والخواء الداخلي وهما شعوران سلبيان يهددان صحة الفرد النفسية ومن تم أداءه المجتمعي، غير أن الاشارة إلى أن الوصول إلى بديل يجعل الفرد قابلا للتخلي عن الدين وهذا ما لا يتمكنون منه ولتجنب المستحيل ينبغي للجميع الايمان بالاه.

قطع إلهامي اتصال هاتفي من سارة، فتحت الخط وقبل أن أتحدث استرسلت في الحديث متحمسة: أنا سعيدة جدا، لقد خلصت لفكرة: غالبا ما يكون التفاعل مع محيطنا غير مجرد من العاطفة، وكثيرا ما تتماهى مشاعرنا معه لنخلص بإعجاب أو حب أو تقدير أو مدح أو تشجيع غير موجودين ربما إن لم تمس قلوبنا، فمثلا لو قدمنا لوحة دون تعليق مرافق مقابل نفس اللوحة مع تعليق يجر تعاطف الناس كالدين أو الحرب، أو قصة تمس أحاسيسهم ولو كانت مفبركة فإن تفاعلهم المختلف معهما سيكون ملحوظا جدا، إننا نهتم أكثر بالظروف المحيطة بالشيء لا الشيء نفسه، ونميل لذلك واعين أو غير واعين. أعجبت مرة بلوحة لطفل مصاب بالتوحد أشد الاعجاب بينما نفرت منها قبل أن أعرف صاحبها، وهمت برجل شهورا طوالا وكان كل ما شدني إليه أنه يبتسم بالرغم من أنه أعمى وكأن ذلك لا يجتمع في أحد، وتعلقت برواية تعلقا شديدا رغم أن موضوعها ليس

من المواضيع المحببة عندي لكنها كانت أول ما قرأته بعدما قال لي شخص أعزه جدا "اقرئي كثيرا حتى تتحسن لغتك" وكأنني لم أسمع هذه النصيحة من قبل ولم أقرأ قبلا، وغيرت نظرتي عن الطب وصرت مستعدة لتقديم ثلاث عشرة سنة من عمري لأدرسه بعدما كنت أرفض رفضا تاما توجهي لهذا المجال لأنني لا أرغب في أن أشيب وأنا أدرس مرغمة، لكن وبمجرد أن مرض شخص أهتم لأمره جدا أو بصيغة أدق بمجرد ما أن علمت بذلك وبالرغم من عدم صلتي به لا من بعيد ولا من قريب، فقط موقف تافه يمكن أن ينسى بسرعة لم يتجاوز عمره دقيقتين قررت أن أغير مساري كله، لكن لحسن الحظ أن عاطفتي هنا قد أصابت، ما رأيك؟

_ "لحسن الحظ أن لي مصدر أفكار آخر غير عقلي، سلمت فكرتك"

_ "أعجبتك إذن"

_ "تعجبني سارة"

ضحكت بخجل ثم تمنت لي أن أصبح على حب وأحلاما سعيدة، فنمت قرير العين راضيا.

المعزوفة 16

سير العظماء التي تدرس للأطفال في المدارس مليئة بالنواقص، فأغلب كاتبيها استلهموا نصهم من شخص حقيقي لكن هذا الشخص الحقيقي وحده من يحتفظ بتفاصيل حياته كاملة لا المتطفلون عليها، ماذا لو كتب بنفسه قصته أسيغفل حقيقته وخباياه والمقصود الخفي وراء كل سلوك؟ بل سيكون مترجم روحه باللغة التي يفهمها القارئ وسيد نصه. وبما أنني الحاكم، الرجل العظيم قريبا فلن أسمح بنقل حياتي للآخرين إلا وأنا ناقلها وبالتالي فقد قررت أن أكتب سيرتي منذ ولادتي إلى يومي هذا، ولن أغفل على أي تفصيل مهما كان بسيطا فحتى بكائي وأنا رضيع له مغزى..

ولدت لعائلة ارستقراطية ورثت مكانتها الاجتماعية من الجد الثالث والعشرين لوالدي الذي كان حاكما لأحد الأقاليم، وليس لنا من ذكراه غير اسمه " جورج" الذي علمه كل أب لأولاده حتى لا يحدث وننسى من له الفضل في حياتنا الكريمة هاته ، والدي أستاذ فلسفة، يحاضر بجامعة امستردام لطلبة الباكالوريوس، ووالدتي أستاذة بيانو تقدم دروسا منزلية لأطفال الأحياء المجاورة. لي من الاخوة ثلاث صبية وفتاة ؛ ماثيو ولوغان وأيدن وكارمن وأنا خامسهم في الترتيب وخامسهم في المكانة، أنجبتني أمي مجبرة بعدما فشلت في إقناع والدي بإجهاضي، وربتني بذلك مكرهة فحصلت منها على التأفف والكره أكثر من الحب، لكنني سرعان ما عوضت نواقصي بصديقي أوناي الذي انتقل وأنا في سنتي الأولى إلى المنزل المجاور لنا، وبذلك تعاهدنا ألا نفترق أبدا ومن أخلف سيأكل مائة مسمار ولم نخلف.

كنا ننتظر انتهاء أمي من سقي مزروعات حديقتنا لنتسلل إلى البقع الفارغة حيث يجتمع الماء والتربة لتكون مرتعا خصبا للعبنا، غير أننا كنا نعاقب بعد كل مرة بسبب تلويث ملابسنا، كان ركن العقاب خاصتي بجانب الدولاب في غرفة نومي، فمن الممنوع أن أغادره حتى تكتمل المدة المحددة لعقابي والتي تتغير حسب مزاج أمي، وعادة ما كانت تنساني مددا طويلة جدا والتي كان يؤنسني فيها أوناي خفية من نافذة الغرفة حيث يعتلي برميلا لا يستخدم في خلفية المنزل، ويحدث كثيرا أن ننام ونحن نثرثر إذ نسترسل في الحديث إلى أن يغلبنا النوم،

حكى لي اوناي مرة عن "اللوياثان" وهو تنين بحري يسرق الذهب ويخبئه في الكهوف الغابرة وهو عدو للبشر، هكذا سمع والده وهو أستاذ في مقارنة الأديان يشرح لأحد طلابه ما جاء في أحد الأسفار: "في ذلك اليوم يعاقب الربّ بسيفه القاسي العظيم الشديد لوياثان، الحية الهاربة. لوياثان الحية المتحوية، ويقتل التنين الذي في البحر" وقد ظل يردده إلى أن حفظه على ظهر قلب، فاتفقنا بعدها انا وأونواي أن نخفي أموالنا تحت وسائدنا ليلا حتى لا يسرقها التنين منا ونضع بجانب فراشنا عصا خشبية طلبت من أخي الأكبر مرة أن يصنعها لي على شكل سيف حتى أحارب بها هذا الوحش. عادة ما يخبرني أوناي بكل ما سمعه من والده، مرة لنحلل ما جاء به ومرة لنحاول فهم ما استعصى علينا فهمه فنبحث عن تفسير يلائم عقلنا الصغير آنذاك، سمعت مرة عن العنقاء، فتمنيت بكل جوارحي وشاركني في تمني رفيقي أن نكون كطائر العنقاء نتمكن من الولادة في كل مرة نمل فيها من حياتنا، فلطالما رغبت في أن أختفي لأنسى إهانات والدتي لي وإن حدث أن اكتسبت هذه القدرة فسأستطيع أن أعيش أحداثي السعيدة فقط، تساءلت مرة ما السعادة؟ فقال أوناي أن تحبنا أمهاتنا؛ أغبطه لسعادته..

تحول بعدي على أمي إلى إفراط في عاطفتي تجاه أوناي إذ تعلقت بوجوده أيما تعلق، فصارت السعادة بالنسبة لي أن يحبني رفيقي ولقد أحبني..

كنا نتسلل خلسة نحن الاثنين إلى مكتب والدي ونبحث في كتبه عن ما يلهينا، لكننا لا نجد في أغلب صفحاتها إلا الكتابة، غير أننا لا نمل من تصفحها لعلنا نجد رسما أو صورة او ما شابه وإذ ببصرنا قد وقع مرة على رسم لسرير يستلقي عليه شخص طويل للغاية وواقف بجانبه آخر يحمل فأسا مستعدا لأن يهوي عليه به، علمت فيما بعد من والدي أنه سرير بروكرست، يحرص صاحبه أي " بروكرست" على أن يتناسب طول المستلقي مع طول السرير، فإن كان قصيرا مط أطرافه حتى حافة السرير أما إن كان طويلا فيبتر من ساقيه ما يتجاوزه، لكن كيف يمكنني تخمين سرير بروكرست من غيره، أيمكن أن يكون سريري كذلك خاصة وأننا نجهل صاحبه لأن والدتي اشترته مستعملا؟ أيمكن أن أستيقظ يوما بلا رأس أو بلا قدمين أو ان أصير مطاطيا بعد أن أمد؟ أسأظل حيا بعدها؟ لو نزفت قطرة قطرة حتى يفرغ جسمي من الدم أو أن تخلع أطرافي؟ رافقتني هذه التخوفات عمرا طويلا وزارتني الكوابيس التي توقظني أصرخ:" أمي" مرات عديدة، أنا لا أحب أمي لكن لماذا تعتبر الملجأ الأول لي في حالات خوفي الكبرى؟ أ لارتباطنا البيولوجي علاقة بذلك؟ أم أن هناك ارتباطات أخرى نفسية مثلا أو غريزية؟ ما الأم بالنسبة لنا؟ أتتعدى علاقتنا كونها حملتنا في رحمها تسعة أشهر ثم أرضعتنا؟ أمي لم ترضعني، كيف يمكن أن تكون مدة ارتباطنا هذه كفيلة لتحويلها إلى بر أمان؟ يذكر الدكتور رينيه سبيتز وهو محلل نفسي نمساوي، أن سبعا وثلاثين بالمائة من الرضع في دور الأيتام والذين لم يسبق وأن تواصلوا جسديا مع أمهاتهم يكون مصيرهم الموت، أهذا ما يقصده أبي عندما ينادي أمي بحياتي؟ كيف للأم أن تكون الحياة؟ لكن كيف لم تمكنها غريزتها من الالتصاق بي

فالأمهات عادة ما يلتصقن بأطفالهن؟ أليس الاحتضان الطريقة المثلى للتعبير على الحب فلماذا لا أذكر آخر حضن؟ إن قلبي مكتظ بالحب الذي لم أجد لمن أصرفه غير رفيقي ثم سارة حينما كبرت، وإن في قلبي بذلك غصة.

أتساءل ماذا لو كانت كل ذكرياتي مزيفة، وكان كل ما أتذكره محدثا على حسب هواي وإن كنت غير مدرك لذلك، ماذا لو أن ماضي قد تم إعادة بنائه بطريقة خاطئة أو تمت صناعته من جديد، ما الذي سيؤكد لي أنني قد عشت ذكرياتي حقيقة. في رواية 1984 لكاتبها جورج أورويل تم طمس تاريخ البلد الحقيقي من طرف الأخ الأكبر وتعديله ليتناسب مع أهدافه مرة ثم مرة حتى نسي الشعب حقيقة دولتهم، أيمكن إسقاط ذلك على حياتي؟ فلربما قد خدعت ذاكرتي ذات مرة لكنني لم أع ذلك وبذلك فماضي ما أذكره لا ما أخفيه.

حكى لي يوما أبي قصة ذات الرداء الأحمر والذئب، فسألته لماذا لا نفكر في كون الصغيرة هي الطرف الشرير في الحكاية؟ فضحك حتى برزت نواجده وأجابني مربتا على كتفي بأن الذئاب فقط من تكون شريرة، لم أتوقف عن التساؤل بعدها ماذا لو سمعنا القصة من منظور الذئب؟

كان هناك ذئب وديع يتجول في الغابة بالقرب من وكره إلى أن سمع وقع أقدام حوله فارتعب رعبا شديدا وإذ بفتاة صغيرة ترتدي رداء أحمرا قد اقتربت منه مطمئنة إياه، أخرجت من سلتها كعكة ووضعتها في فمه فأعجب بمذاقها أيما إعجاب، أخبرته الفتاة بأنها في زيارة لجدتها وجدتها تصنع كعكا لذيذا جدا وبإمكانه مرافقتها للحصول على بعضه، فوافق الذئب مسرورا، عندما دخلا إلى البيت أغلقت البنت الباب بالمفتاح فخاف الذئب، أخرجت الجدة فأسا وشكرت الصغيرة على إحضارها طعام العشاء، عوى الذئب طلبا للنجدة فسمعه فلاح

مار بجانب الكوخ، دق الباب فإذ بالجدة وحفيدتها يصرخان أن بداخل البيت ذئبا فضرب الفلاح الباب بفأسه وقتل الذئب ثم تبادلت الشريرتان الابتسامة.

فتح أوناي فاه طول مدة قصي لقصتي هاته، وحينما انتهيت سألته بحماس ما رأيك؟ فقال: وآاو تأكل الذئاب الكعك أيضا وأنا أيضا أحب الكعك خاصة التي تعده أمي.. وانتهى بنا المطاف للنقاش على أحب الأطعمة إلينا ناسيا تساؤلاتي عن من الشرير الذئب أم الجدة..

أحب الأرز بصلصة الطماطم جدا وعصير الموز إذ يمكنني التخلي على وجبات العالم كلها في مقابلهما، أحمق من لا يعتبرهما طعامه المفضل، لو صرت حاكما لجعلتهما الطعام الرسمي للدولة كاللغة الرسمية وما شابهها، لكنني أتساءل ما الذي يجعل المرء يحب احدى المذاقات أكثر من غيرها؟ وكيف نتذوق أصلا؟ سألت والدي عن ذلك، فأخبرني بأنه علي ان أكبر لأفهم تعقيد الأمر وعلمت فيما بعد أنه لا يفقه في ذلك علما إذ صادفته مرة يبحث في كتاب عن الحواس وعلم الأعصاب خلسة، كبرت وحاولت الفهم ولم أفهم أيضا، كل المصطلحات الطبية معقدة تعيق الفهم فتنازلت حينها على فكرة المعرفة واستمتعت بجهلي في الموضوع..

ما الجهل؟ الجهل أصل كلّ الشرور كما قال أفلاطون، فبسبب الجهل ينجم التيه والتطرف و الإرهاب و السكوت عن الحق و احتقار العالم وإذلال الآخرين، وينجم عنه الغنى الفاحش والفقر المدقع، والحرب والظلم والطغيان والاستبداد والدكتاتورية والأخطر وهم المعرفة؛ حينما يغرق في ظلمات الجهل بينما يتوهم معرفة كل شيء فيعتبر نفسه مفتيا وقاضيا وعالما وولي أمر أمة إذا اقتضى الأمر.. سألني أوناي مرة: من أشر الناس؟ فذكرت شخصيات الرسوم المتحركة التي نشاهدها معا، فقال أنه قد سمع من والده غير ذلك فقلت أن افتني،

فقال: " من أبغض الناس وأبغضه الناس، وأشر منه الذي لا يقيل عثرة، ولا يقبل معذرة، ولا يغفر ذنبا، وأشر منه من لا يؤمن شره ولا يرجى خيره"* فحفظت ذلك عن ظهر قلب.

وفي خضم حديثنا عن شرور العالم تذكرت قصة حكاها لي والدي، يحكى أن ملكا قد أحضر صندوقا مليئا بالشرور لبيته وطلب من زوجته بندورا ألا تفتحه حتى تظل حبيسة فيه ولكن لفضولها قد خالفت أمره فعمت الشرور العالم إلا اليأس الذي تردد في الخروج و يقال أنه بسبب ذلك لا يغلبنا اليأس، ماذا لو خرج اليأس أيضا كيف أمكن لهذه الحياة أن تطاق؟ أ فليس الأمل وحده من يحمي العالم من التعفن؟

كان لي أمل دائما في الحصول على اللعبة التي أرغب بها إذ كنت أذكر والدي في كل مناسبة بذلك لكنني أظنه يتناسى ذلك عمدا، وفي احدى الأيام أتاني برسالة في قارورة ولجهلي للقراءة آنذاك فقد تلى علي محتواها، إنها خريطة تشبه خرائط الكنوز المدفونة التي نشاهدها في أفلام الكارتون، علم باللون الأحمر تحت شجرة تفاح، فقال والدي بأنه قد وجد الرسالة مدفونة في حديقتنا وبذلك فشجرة التفاح هي إحدى أشجارنا، تحمست جدا وطلبت منه البدء فورا في البحث عن الكنز فلربما سنصبح أثرياء للغاية، إلا أنه قد قال بأن هناك شرطا مدونا في أسفل الرسالة :" إلى جوهان: للحصول على الكنز ينبغي أن لا يساعدك أحد" فتحت فاهي وانا أسمع ذلك! أ الكنز مرسل لي؟ كم أن هذا الأمر يدعو للحماس ومن تمة التوتر أيضا، أحضر لي أبي معولي البلاستيكي وجلس بعيدا يعطي التعليمات؛ اخطو ثلاث خطوات إلى اليمين وخمسا إلى الأمام، استدر يسارا ثم يمينا، أكمل يمينا، قف هنا موضع الكنز، احفر جيدا..

بعدما لطخت ملابسي كلها بالوحل وعلمت بالعقاب الذي ينتظرني وجدت كنزي أخيرا، علبة كرتونية ضخمة، فتحتها وأنا أطير فرحا فإذ بها اللعبة التي تمنيتها طويلا، استدرت إلى أبي وعيناي دامعتان وعانقته طويلا، فربت على كتفي وقال:

_ "الآباء لا ينسون وعودهم لأطفالهم، استمتع بوقتك."

لعبتي الخاصة التي ما زلت أحتفظ بها إلى يومنا هذا لم يشاركني فيها غير أوناي

*مقتطف من حديث نبوي بتصرف

إذ كنا نلعب سويا كل يوم إلى وقت متأخر إلى حين قدوم والدته للبحث عنه وإذ

به يبكي بشكل يومي لأنه يأبى مفارقتي ومفارقة المتعة التي نحظى بها معا..

لكن البعض من مخططاتي قد ظل مخفيا على أوناي أيضا، نفذتها وحيدا ولم أعلم بها أحدا قبل، يحدث مرة أن تتملكني الرغبة في تجربة شعور الغريق فما كان مني إلا أن ملأت حوض الاستحمام بالماء إلى آخره وغطست فيه رأسي حتى أحسست بالاختناق فسحبته، أعدت الكرة مرة ثم مرة وأنا أشعر بالنشوة مرة تلو الأخرى، ثم أدمنت ذلك بعدها واعتبرتها كمكافأة لي بعد كل حمام، وتملكتني أيضا الرغبة في تجربة شعور المشنوق، فارتفعت على كرسي وأمسكت بحبل الغسيل وأدرته على عنقي غير أنني لم أربطه بإحكام ففكت العقدة بعد إلقائي الكرسي ووقعت أرضا، فرحت أبكي إلى أمي بعدما جرحت ركبتي..

إنني أرى الناس مجموعة من الحزانى المحاصرين بأفكارهم الساذجة تارة والحمقاء تارة أخرى، إلا أن خاصتي كانت مختلفة، فإيماني الشديد بقراءة الآخرين لأفكاري أثناء حضورهم جعلني أحرص حرصا تاما على خلوها الكلي من الشوائب والحفاظ على العقلانية منها فقط؛ أردت مرة التسلل إلى المطبخ لسرقة بعض الحلوى فوجدت صورة أبي معلقة فوق المخزن، فاعتذرت ثم غادرت جريا ظنا مني أن روح أبي في الصورة قد تقرأ فكرتي في السرقة، وأخجل من التفكير في حضرة والدتي في اللحية التي تنمو تحت ابطي والتي تساءلت لوقت طويل عن مصدرها ولم أجرؤ على السؤال، وأخفي أيضا رغبتي في القتل التي تملكتني منذ ولادتي. من يموت أطفالهم صغارا يدخلون الجنة، سألت أمي مرة هل بقتلي لأختي الرضيعة ستدخل الجنة، فردت بإيجاب إلا أنها أعقبت بأنني لن أرافقها؛ تساءلت عن عدل الله وقتها، كيف يسمح بأن لا أحظى بجنته وأنا لا أريد لأمي بفعلتي تلك إلا النعيم. لم أتراجع عن خطتي بل غيرت منحاها فقط، ماذا لو مت وأنا طفل أسأدخل الجنة أيضا؟ لا يمكن لذلك أن يحدث فجأة لكن يمكن إحداثه، غفوت وأنا أفكر بالأمر وحلمت بالجدار يسقط على والدي فطلبت منه حين استيقاظي أن لا يمشي بجنب الحائط كما تكرر أمي دائما حين يتكلم أحدنا عن أشياء لا يستحسن الحديث عنها، وتلاه حلم بزلزال أوقع خزانة الملابس على موضع نومي فنمت كل الليالي بعدها أضع يدي عليها مترقبا أي زحزحة حتى أقاوم سقوطها، لم تسقط أبدا لكنني أسقطتني وأنا أترقب ذلك وبلت ذاكرتي وهي تستحضر نفس المخاوف كل يوم وصارت أضعف من ذاكرة سمكة؛ أخبرني صديق مرة بأن للسمك ذاكرة ضعيفة، لم أتحقق من ذلك لكنني وجدته مقبولا..

أحس بصفير في قلبي شبيه بصفير الكوة تحذيرا من قدوم " الثانيين" في فيلم الضائعون في كل مرة أتذكر القزم الأسود ذو العينين الشبيهتين

بعيني الكوالا و أذنيه الطويلتين والذي لطالما حكى عنه أخي، رأيته مرة بعيناي هاتين يطل برأسه من وراء الخردة الموجودة في العلية، فنزلت الدرج ركضا ولم أصعد إلى هناك بعدها وحدي قط. قال أبي بأنني أتهيأ فقط، ربما هو محق فكم من عيون سوداء قد شهدتها تراقبني في الظلام ليال طوال، وبعض القطط التي تشاكس في سقف الغرفة وبعض الكيانات الغريبة الشكل التي أراها ليلا، يؤكد أبي أن مخاوفي فقط هي التي تتشكل لترعبني وأن لا أشباح هنا لكنني قد صادقت واحدا، اسمه جيمس، لكنه اختفى في عيد ميلادي السابع فجأة، كان يسمح لي بضربه وقتما شئت وبتفريغ غضبي، وحينما كانت تصرخ امي علي كنت أصرخ بدوري عليه، لم يكن يبكي بل يستفزني لأغضب أكثر ولأصبح أكثر عنفا وقساوة وأذية، صديقي ذاك قد كان مازوشيا، يتلذذ بتعذيبي له في حين أتلذذ أنا بفعلي ذاك، يطلب مني مرات تغيير طريقة عقابي له ويلهمني بأخرى جديدة أكثر خبثا، لم أخبر أحدا عنه ولا أوناي أيضا لأنني كنت أدرك أشد الادراك أن سلوكي شاذ وسلوكه أيضا ولن يقبله العامة من محدودي الفكر فاحتفظت به سرا لنفسي..

" أ فتظنين أن في هذا العالم ذنبا يمكن أن يفوق الحب"* ، هكذا كانت الجملة الوحيدة الموسومة في دفتر والدي الذي أبحث فيه سرا كلما أتيحت لي الفرصة، تساءلت كيف لحبي لأوناي أن يكون ذنبا؟ كيف لفرحي بالسيريلاك و سرقة تفاحة أخي من الثلاجة واللعب بالطائرة الورقية و السباحة في النهر مع أوناي أن يكون ذنبا؟ أ سيعاقبني الله لأنني أحب؟ ألن أدخل جنته؟ تذكرت ماحكاه لي والدي على تصور المصريين القدامى للجنة؛ إذ يقال أن أرواحهم تصل الى أبواب الجنة فتسأل سؤالين وعلى أساس جوابيهما يتقرر مصيرهم: هل وجدت السعادة في حياتك؟ وهل جلبت السعادة للآخرين؟ وظني أن الحب سبيل لكليهما وبذلك وسيط لبلوغ الجنة، ولكن كيف يتناقض ذلك مع ما يفكر فيه والدي؟ أيحبني والدي؟

سألت أوناي مرة ما الحب؟ فقال أن ندمن بعضنا البعض! لم نكن حبيبين، لكننا بطريقة ما فتحنا قلبينا لبعضنا أعمق بكثير مما يفعل المتحابان،* ماذا لو كان أحدنا فتاة؟ أكانت صداقتنا ستصبح على ما هي عليه الآن، ألم نكن سنقع في حب بعضنا البعض بالطرق المحيدة عن حبنا الحالي؟ ألم يكن لحبنا أن يضيع وسط العتاب والغيرة؟ أضاع حبي لسارة؟ لم يكن لسارة وجود حينها وبذلك لا يضيع الغير الموجود، لقد مثلت خاصتنا الصنف الثالث من ناتج تقسيم أفلاطون للصداقة: صداقة فاضلة مبنية على الحكمة والفضيلة، لا هي صداقة متعة ولا مصلحة. ماذا لو لم يكن أوناي؟ أ كنت سأحزن لفراق صديقي الذي لم أعرفه قط؟

ما هو الموجود؟ أيمكن أن يكون الحاضر في أذهاننا فقط موجودا وبذلك فكل من القزم الأسود وحلوى السكر وحصاني الذهبي وأمي موجودون؟ هل أوناي موجود؟ هل تكفي رؤيتي لكيان ما أن تبرهن على صحة وجود هذا الكيان؟ هل يمكن أن تكون لنا مشاعر مصاحبة لما نفكر فيه فقط لا ما نحسه؟ إن لم يكن كذلك فكيف لي أن أحس بالحزن كلما تخيلت إحدى السيناريوهات المحزنة، والتي أستمتع بها، في رأسي وكيف أتماهى معها كأنني أحد أبطالها؟

وكيف لي كشخص أوحد أن يشكل عصابات لسرقة التفاح وقلوب العذارى ثم أكون الشرطي والمحامي والقاضي والمحلفين وصاحب الدفاع العام وبائعة المناديل التي حاولت أن تبيع لي وأنا مكبل بالأغلال ومقتاد إلى سيارة الشرطة المدرعة، والطفل الصغير الذي ارتعب وعانق أمه والحمامات التي حلقت خائفة وبزقت إحداها على رأسي، كلهم أنا. إنني أرى نفسي سيدي وسيد غيري، المتحكم في أفكارهم ونواياهم وسلوكاتهم كلها، إنني الذي أختار حزنهم وسعادتهم وحبهم ويأسهم وبؤسهم وبأسهم، إنني هم واحدا واحدا؛ فقيرهم

وغنيهم وجلادهم وضحيتهم، إنني الجريمة والعدالة و السادية والمازوشية والنرجسية، إنني الكون،

أنصاع تحت إرادتي وسيادتي ورعايتي، إنني التناغم والتآلف بين قلوب كائناته،

وتجلي الحياة في وجوه الأحباء والأعداء، أنا أنا ولست أنا والكل أنا ولا أحد إلاي أصيح وأصرخ في العالم فليباركني الرب، فليباركني الرب..

اتخذت أول حبيبة لي في سن السابعة، إيما، تصطاف عادة عائلتها في البيت المجاور لنا وفي صيفها الأول بالقرب منا سرعان ما صارت رفيقتنا الثالثة في اللعب، كنا نحب نحن الاثنين لعبة التحديق وكان أوناي الحكم دائما، وكنت أستغل ذلك لأقضي وقتا لا بأس به في دراسة تفاصيلها؛ لقد كانت حلوة القسمات ذات عينين لوزيتين عسليتين وأنف دقيق وشعر أصفر كالذهب تسرحه كذيل الحصان دائما، نظرة كالربيع، هادئة ولها قلب كالقطن ولم تتوقف على الابتهاج منذ عرفتها قط. كنا نلعب مرة الغميضة، وكان دوري لأختبئ، استدارت إلى الحائط وبدأت في العد واستلقيت أنا تحت سيارة والدي، بحثت عني طويلا وهي تنده جوهان، جوهآن، لكنني لم أستجب لها طبعا وإذ بندائها ينقطع وظللت أنتظر إيجادها لي وقتا كثيرا إلى أن غفوت ولم يوقظني إلا صوت سيارات الشرطة ونواح أمي، علمت فيما بعد أن إيما قد بحثت عني في حديقة المنزل وخارجها لأكثر من ساعة ولم تجدني فلجأت لأمها تبكي وتشكو اختفائي فأعلمت بذلك عائلتي ثم الشرطة ظنا منهم أنني خطفت، وعندما خرجت من تحت السيارة أحك عيناي الناعستان قال الشرطي مازحا: لقد ابتلعته عجلات السيارة وها هي ذي قد أخرجته الآن ،فضحك الجميع إلا أمي التي توعدتني بالعقاب ولقد عوقبت..

جلست أفكر طول مدة عقابي التي امتدت ليوم كامل؛ ماذا لو كنا ننمو بريا دون حاجة لوالدين ونقطف إذ نحن أينعنا، ويتم تحضيرنا للخروج إلى العالم في مزارع خاصة بالآدميين، ثم يتم تصديرنا للمجتمعات حسب نسبة جمالنا وذكائنا، من الحاكم إذن في هذه الحالة؟ ومن هم المسؤولون على هذه المزارع؟ أيمكننا اعتبار المربين ساعتها آباء لنا؟ ماهي الأبوة؟ أيمكن أن تكون الاهتمام والعناية دون ضرورة انبعاثنا من أصلابهم؟ إن كل من يحبنا دون مقابل أب لنا وإن كان يكبرنا بيوم واحد فقط، وبذلك فأنا والد لإيما، أيصلح أن أحبها إذن وأن يتزوج الأب ابنته، تخليت بذلك عن فكرتي وفضلت عليها إيما وحب إيما..

طلبت من إيما لقائي سرا في إحدى المرات وقد أعطيتها ورقة واختفيت قبل أن أذوب خجلا، كتبت فيها جملة قرأتها في إحدى كتب والدي : "* حبيبتي ، أرجوكِ تعلّمي أن تكوني سعيدة ، من أجل الرب ، هذا كُل ما أتمناه لكِ ، ليس بوسعك

منحي شيئاً أجمل من حُبك سوى سعادتك." لكن والدتها قد قرأت الرسالة ومنعتها من محادثتي وبذلك قد أجهضت أول محاولة حب لي.

إن كوموديا الحياة هي التي تجعل منا مجموعة من الحمقى والمهرجين كلما حاولنا مراقبة ما ليس لنا، ما الذي يجنيه عباد الشمس من مراقبته الدائمة لشمسه؟ حلمت مرة بأنني تباع شمس أنتصب وحدي في أرض قاحلة وأبلغ من الطول ثمان أمتار أتمايل برأسي في اتجاه الشمس التي تجيء وتذهب يمنة ويسرة دون توقف، وإذ بصوت خارجي يهمس:

_ "اتبع ضميرك لا ضميرها !"

أسأل:

_ "من ؟"

فيجيب:

_ "ضميرك لا ضميرها، ضميرك لا ضميرها، ضمي.. إلى أن اختفى ثم استقيظت فورها لا أدري لطريقي اتجاها. "

المعزوفة 15

"دخلت فإذ بي أرى كائنات بشرية قابعة في كهف مظلم منذ زمن طويل، مقيدة بالأغلال ولا يمكن لأعناقها الحركة؛ قيل قديما أن مجموعة من الصبيان قد اختفوا فجأة في الأرجاء وقد أشيع أن صاحبة الكهف قد اختطفتهم وأظن أنني صاحب الشرف في إيجاده وإن كان لرحلتي هدف آخر، وراءهم نار مؤججة يمكنهم نورها من رؤية ظلال على الجدار المقابل لها، وقفت أمامهم واللمبة في يدي فإذ بهم يصرخون رعبا، بلغتهم حسن نيتي وفككت أغلالهم وقدتهم إلى مخرج الكهف فإذ بنور الشمس تلهب عيونهم، يلتفتون يمنة ويسرة فاتحين فاهم غير مدركين للجديد الذي وقع أمام أنظارهم فجأة، تركني الثلاثة واجتمعوا يهمسون في ما بينهم واتفقوا على الاجهاز علي والعودة لواقعهم في الكهف كما عهدوا مدة طويلة، فذاكرتهم لا تسعفهم لتذكر فترة ما قبل الكهف لكنهم واثقون من رغبتهم في عدم بلوغ فترة ما بعد الكهف، ففطنت لنيتهم وأطلقت سيقاني للريح إلى أن بلغت من البعد عنهم ما يجعلني في مأمن فوقفت لاهثا أسترجع أنفاسي لاستكمال طريقي إلى مكان أجهله.." التفتنا إلى بعضنا البعض فاتحين فاهنا غير مصدقين لما قرأنا، قلبت الورقة فإذ بها فارغة فسألت أوناي هل من دفتر آخر لوالده يكتب فيه مغامراته علنا نجد بقية لقصته هاته فأجاب بالنفي، ومن يومها ونحن نعتبر والد أوناي مغامرا كبيرا وغامضا في آن واحد لأنه يخفي علينا طبيعة ما عاشه في شبابه قبل أن ينجب أوناي، وقد اعتدنا من حينها أن نفتش في دفاتره لعلنا نجد ما يطفئ فضولنا، وأثناء بحثنا في إحدى المرات سكب أوناي كأس العصير على مكتب والده وبما في ذلك دفاتره وأوراقه وعلم فيما بعد

بتسللنا لغرفته فحرص على إقفالها في غيابه وضاعت بذلك إحدى سبل متعتنا..

كبرنا بما يكفي لنلج أسوار المدرسة للمرة الأولى، كنا شجاعين جدا ولم نبك بل أمسكنا يدي بعضنا البعض ودخلنا منتصبي القامة كأننا مالكوا المكان وليس تلاميذا، وقد تم ضمنا لصف واحد واستمر ذلك طول مسيرتنا الدراسية الطويلة جدا، كنا نجلس جنبا إلى جنب في كل الحصص وحينما يعاقب أحدنا يطلب الآخر العقاب أيضا، لقد كنا كالتوائم لا نفترق أبدا، إلا أنه في فترة الغذاء كان بعض الطلاب الأكبر منا سنا يحاولون التنمر علينا فرددنا لهم الصاع مائة صاع حتى صرنا أبطالا في أعين أقراننا فلا يجرؤ أيهم على الاقتراب من أحدنا غير أننا قد عوقبنا يومها بالحجز لمدة ثلاث ساعات بعد الدوام وقد كانت الأكثر رعبا في حياتنا؛ انعقدت في السماء ظلة سوداء حجبت نور الشمس ودوى صوت الرعد قويا و تهاطلت الأمطار غزيرة وصوت الريح يهب بين الفينة والأخرى يحرك أغصان أشجار الحديقة ونوافذ الفصول فينتج بذلك صوت شبيه بأفلام الرعب، وإذ بسكون مفاجئ يعم المكان وبصوت خطوات تطرق الأرض بقوة تقترب رويدا رويدا من الفصل المحتجزين به ثم طرق الباب طرقا متتابعا كطرق العساكر ثم إذ بمقبض الباب يتحرك وظل طويل يعكس على النافذة يحمل كيسا كبيرا، خفنا جدا فالتصقنا ببعضنا البعض و أغمضنا أعيننا طويلا، واسترسلت العاصفة وتوقف الطرق.. عندما انتهت فترة حجزنا عدنا لمنزلينا شاحبين مرتعبين ومتعهدين على احترام القواعد دائما حتى نتجنب الحجز من جديد. كانت أمي دائما تحكي لي عن صاحب الظل الطويل الذي يختطف الأطفال الذين يخالفون القوانين ويتسببون في المشاكل، يأكل قلوبهم ثم يرمي جثته في النهر ولذلك يلفظ النهر أحيانا جثت بعض المفقودين، و يقال بأنه يحصل على حياة كل من أكل قلبه ويزداد شبابا وحيوية وبذلك ينبغي التخلص منه

قتله بعدد الحيوات التي يملكها والتي تقدر بالآلاف فالمشاغبون كثر، لكننا نسينا الحادثة بعد أيام وعدنا للهونا وشغبنا المعتادين ناسين عهودنا وتعهداتنا. ما قوة هذا الخوف الذي يجعل منا مطيعين طول مدة استحواذه على نفوسنا ويجعل منا أناس صالحين؟ لكن لماذا يعتبر العدو الأول للحياة الطيبة والعدو للأول للحكمة كنا يذكر الفيلسوف الفرنسي لوك فيري في كتابه؟ لكنه بالرغم من ذلك فإنه يشبهه ب"الناصح التعيس" الذي يسلبنا حرية التفكير ويجعل منا رزمة من الأنانيين الذين تتمحور أهدافهم على الهروب من الخطر والذي يكون غالبا متوهما غير نابع مما هو حقيقي بل مما هو خرافي، شكل الخوف العدو المشترك لكل من سقراط، وأبيقور، وسبينوزا، وكانط، وهيغل، ونيتشه، وإميل شارتييه والذين اجتمعوا على ضرورة مجابهته وتخليص البشرية منه حماية لهم من العبودية والخرافة والجهل. ما الخوف؟ أيكون القشعريرة المصاحبة لرهبتنا من شيء أو وضعية حقيقية أو متخيلة؟ أم تلخبط الأفكار نتيجة ذعرنا؟ أهو الرهبة أو الذعر؟

لماذا ترتفع دقات قلبنا حينما نخاف ويقف شعر ذراعنا؟ لماذا يقرن الخوف بالفشل؟ لماذا نبحث عن ملجأ فور شعورنا بالخوف؟ لماذا يسأل المؤمنون الرب حمايتهم والملحدون قوى الطبيعة؟ لماذا نحتاج دائما إلى سند؟ أ تماهيا مع طبيعة الكائن الإنساني الاجتماعية فيبحث دوما عن من يؤنس وحشته؟ أم لأن العاطفة مكون أصيل للنفس البشرية فيحتاج دائما لمن يؤججها ويذكره بإنسانيته؟

كان يكرر معلم التاريخ دائما أنني ذكي وذو ذاكرة فلاذية تصعب على زملائي مجاراتي، كنت أحفظ تواريخ كل الأحداث الدولية المهمة مما جعلني افوز مرتين متتاليتين في مسابقات التاريخ التي كان يجريها لنا

معلمنا وأترك بذلك كل أترابي فاتحين فاهم من روعة ودقة أجوبتي، أراد المعلم أن يفاجأني مرة بأسئلته الغيرالمعتادة والتي لم يسبق له أن ذكر أجوبتها في الفصل ممتحنا بذلك معارفي:

_ "متى أنهت الثورة الفرنسية النظام الملكي في فرنسا؟"

_ "1789 _ 1799 م"

_ "متى أجاز البرلمان الإنجليزي مُسوَّدة حقوق الإنسان؟"

_ "1689م"

_ "من تزعم حركة الاصلاح الديني في أوروبا ابتداء من 1517؟"

_ "مارتن لوثر الراهب الألماني وأستاذ علم اللاهوت."

انفرد بي في نهاية الحصة ليسألني عن من يدرسني التاريخ فقلت والدي لكننا لا ندرس إنها لعبتنا المفضلة .

منذ أن أصبحت طالبا في المدرسة الابتدائية حرص والدي على اللعب معي كل يوم لعبة المعلومات، يمدني في كل مرة بمعلومة في سطر أو أقل ويطلب مني أن أحفظها للغد وفي نهاية كل أسبوع نكرر المعلومات التي تعلمتها طيلته كمكافأة على اجتهادي يصطحبني لنأكل البوظة كل يوم أحد. أحرص بدوري على تعليم أوناي لكن ذاكرته تخونه دائما ويتأفف في كل مرة بأنها لعبة مملة ويطلب مني أن أشاركه اللعب بالصلصال ونفضل أن نصنع به أشكال الحيوانات المختلفة وهنا تبرز نقطة ضعفي، فأوناي يعرف أسماء كل الحيوانات وأسماء صغارها وأصواتها إلا أنني أقل منه مهارة في ذلك ولذلك أطلب منه في كل مرة تعليمي ويحب أوناي جدا لعب دور الأستاذ فيلبس وزرة والده الأطول منه ويلبس نظارات شمسية ثم يطلب مني الترديد وراءه: هذا كلب

ابنه الجرو وصوته النباح، هذا قط ابنه الهر وصوته المواء، هذا أسد.. إلى أن نتعب فنستلقي فوق عشب الحديقة واضعين ذراعينا وراء رأسينا نتأمل السماء ونتساءل عن زرقتها، مرت من فوقنا مرة نحلة فصرخ أوناي فجأة : يطلق على صغارها الرضع وصوتها الزعيب، ثم ضحك بعدها كثيرا وشاركته في ذلك..

في أول امتحان لي حصلت على علامة كاملة في الرياضيات إلا أن أوناي قد رسب فأخذت على عاتقي تدريسه وإذ بنا قد قلصنا من وقت اللهو لندرس بجد، غير أن أوناي بالرغم من رغبته الكبيرة في التعلم فقد كان يتثاءب كلما بدأت في الشرح فلربما طريقتي مملة، لحظت أنه لم يفهم ما أحكيه فذهبت للمطبخ وأحضرت الموز الذي في الثلاجة ولأنني أعرف أنه يحب الموز فقد وعدته بواحدة بعد كل جواب صحيح، وقد استخدمته أيضا لأعلمه الطرح؛ لدي خمس موزات وأكلت اثنتين فكم بقي؟ يحك رأسه بيده ويفكر بعمق و يجيب أخيرا بثلاثة فأصفق فرحا بنجاحي كمعلم ونجاحه كتلميذ، ونواصل تعلمنا إلى أن حصل في الامتحان الثالث على علامة كاملة فاشتريت له بمصروفي موزتين وصرنا بعدها فطاحلة الفصل في مادة الرياضيات يغار منا كل رفاقنا، وقعنا مرة في فخ نصبه لنا زملاؤنا، إذ بدلوا دفاتر التمارين خاصتنا سرا بأخرى فارغة وقد أحرجنا أمام المعلم لكنه قد قال لابأس، وفرحنا جدا بثقته بنا وجديتنا التي جعلت منا طالبين متميزين.

كان أحب وقت أقضيه في المدرسة هو الفترة الصباحية الرياضية التي نتمرن فيها ونقوم بحركات تسخينية للحفاظ على صحتنا الجيدة وذلك على أنغام أغنية مدرسية: لذلك تعتقد أنك قادر على النجاة من هذه الفوضى إذ كنت أميرًا أو أميرة ، فسترى قريبًا *...

كنا نتمرن بجد وباستمتاع أيضا ونحرص على اتباع حركات المدرب وحينما ننتهي يصفق الجميع تصفيقا حارا على انسجامنا وجدنا ثم ندخل نشيطين للفصل لندرس.

حينما تقترب نهاية كل فصل دراسي يشكل كل مستوى دراسي مجموعة لتقديم عرض أمام المدير والمعلمين والمفتشين وأولياء أمورنا، وقد وقع الاختيار علي كرئيس مجموعة فصلنا وقرارنا المشترك هو تقديم أغنية " صرخة صغيرة من العدم" يشارك في غنائها طلاب الفصل جميعا، وبما أن والدتي عازفة بيانو فقد تكلفت بتعليمي أداء المقطع الذي سنؤديه وكنت بذلك ألمس البيانو للمرة الأولى.

كنت أتدرب لساعات طوال إلى أن تأذت أناملي من فرط احتكاكها بمفاتيح البيانو لكنني لم أيأس بل رغبت بشدة في تقديم عمل متقن يجعل أمي و بارتولوميو كريستوفوري* فخورين بي و أأكد بذلك أن الهاربسيكورد ذا نفع وأن تطوره قد قدم عازفا آخر للبشرية إلى جانب فريدريك شوبان، وفرانز ليست، ولودفيج فان بيتهوفن، وفولفغانغ أماديوس، وموزارت، وفرانز شوبرت، وسيرجي رخمانينوف، وياني كريسماليس، ويوهان سباستيان وغيرهم.. كان خاصتي وبصيغة أدق خاصة أمي من نوع الغراند من طراز شتاينوي مكونا من ثمان وثمانين مفتاحا متوازيا تمنح سلاسة في العزف و أنغاما بدرجات متفاوتة في النعومة والعذوبة، لكن مفاتيحها لسوء الحظ غير مصنوعة من عاج الفيل. سألت أمي مرة عن سبب تسميته في البيانو فقالت بأن اسمه اختصار لكلمة بيانوفورت وهو مصطلح إيطالي يعني الرقة واللين، قلصت من أوقات لهوي مع أوناي فصار يكتفي بمراقبتي وأنا أتدرب ثم المغادرة بهدوء دون أن يزعجني، وفي كل مرة أتقن مقطعا صغيرا يصفق فرحا ويصرخ بحماس أحسنت يا رفيقي، يفرح أوناي وكأن إنجازاتي تخصه ويترقب نجاحي بقلق بالغ كأنه صاحبه، قال لي مرة:

ألسنا صديقين؟ إن الأصدقاء روح واحدة! يفرح أوناي وكأن إنجازاتي تخصه ويترقب نجاحي بقلق بالغ كأنه صاحبه، قال لي مرة: ألسنا صديقين؟ إن الأصدقاء روح واحدة! " إنها أن نكون أخوين، كما تكون إصبعان من أصابع اليد الواحدة."* حركة واحد منهما كفيلة لتحرك الاثنين، الصديق هو الصادق المخلص والعفيف، ونحن الثلاثة في واحد وأدينا يومها القسم بأن لا نفترق أبدا ولم نفترق.

وعشنا معا لهونا وحبنا وفرحنا وأتراحنا وحمقنا وتفاهتنا وجدنا ونبلنا..

علمني والدي قبل سن العاشرة أربع لغات، وأتقنت في سن الثانية عشرة ثلاث لغات أخرى إيمانا منه بمرونة عقول الأطفال وقدرتها على التعلم السريع والعميق في آن وإمكانيتها تخزين كم هائل من الكلمات فحصيلته اللغوية التي يمكن بلوغها لا تصدق، كنت بذلك محط غيرة زملائي ولإغاظتهم أنتقل في حديثي بين اللغات التي تعلمتها واحدة تلو الأخرى. قال لي معلم اللغة أنني نابغة وأنني أجيد ما يفوق سني بكثير وما يفوق معرفته هو أيضا إذ لم ير طيلة مسيرته التدريسية طفلا يتقن اللغة الفرنسية والانجليزية والروسية والألمانية والاسبانية والايطالية واليابانية، وقد كان ذلك فخرا كبيرا لي واعتزازا بقدراتي التي تجعلي مني الأفضل بين أقراني.

حببني والدي في المطالعة منذ صغري فتحول بذلك وقت لهوي وأوناي إلى جلوسنا نحن الاثنين وانغماسنا في الكتب، أحببنا معا الأدب الروسي جدا واتفقنا على أن أفضل قراأتنا كانت رواية "الجريمة والعقاب" لدوستويفسكي، ارتفعت حرارتي لمدة ثلاثة أيام متواصلة حينما كان راسكولينكوف مريضا بعدما قتل المرابية، أحسست بالذنب وبالألم اللذان أحس بهما وكأنني بطل الرواية وليس قارئها، أ يمكن أن نتقمص إحدى شخصيات الرواية؟ أوصلتني عدواه؟ كيف

يمكنني أن أعيش كل تفاصيله وكأنها تخصني؟ كيف أمكنه أن يكون خبيرا في سبر أغوار النفس البشرية دون منازع؟ وقد وعدت أوناي حينها بأنني سأصير كاتبا عظيما عندما أكبر، وبذلك فقد كانت كل هدايا عيد ميلادي المقدمة من أوناي عبارة عن دفاتر وأقلاما للكتابة، يقرن حاجبيه ويقول بجد: يجب تذكير المرء بحلمه دائما حتى لا ينساه، وقد كان في كل الدفاتر المهدات رسم لصديقين على دراجة هوائية وعلى الصفحة الأولى توقيع أوناي: " حتى تتذكرني دائما، مع محبتي.. رفيقك"، وقد كنت أسعد بها جدا.

أودعتني أمي بعد نقاش محتد مع والدي إلى مدرسة إعدادية داخلية رغم رفضي لقرارها الجائر، وظبت حقيبة لملابسي وأخرى لكتبي ورحلت مودعا بيتي ورفيقي اوناي الذي انتقل لمدرسة حكومية غير داخلية وبذلك كانت المرة الأولى التي نفترق فيها منذ لقائنا الأول، اعتدت على النظام الداخلي بعد شهور من إقامتي لصعوبة الالتزام بمواقيت محددة للأكل والنوم وغياب اللهو والاستهتار الذي اعتدته في بيتي.

كانت هناك بوابة حديدية تفصل بين مهجع الصبية والفتيات وكان كل طرف يجهل ما يقبع خلف الأسوار الخاصة بالآخر، لم نكن لنلتقي إلا داخل الفصل الذي حدد فيها الصفان الأول والثاني للفتيان والثالث والرابع للبنات، يدرسنا أساتذة ذكور فقط وقد رفض طلب إحدى المعلمات للتدريس في مدرستنا، ندرس علوم اللغة والفلسفة والمنطق والرياضيات والكيمياء والفيزياء وعلوم الأرض غير أن حصص المنطق هي الأصعب، بعد شهرين من بدء الدراسة حضرت وافدة جديدة شدتني منذ لمحتها لأول وهلة، عيناها شبيهة بعيون الريم، رقيقة الأنف ودائرية الوجه شعرها كالسنابل، فيها من صفات الطفولة والبراءة الكثير، فضحكتها الخجولة الصامتة وصوتها الرقيق

يجعلان منها كائنا ملائكيا صغيرا وحبي الطفولي الثاني، تبادلنا الرسائل سرا لمدة سنة كانت كفيلة لأهيم بها، غير أنها قد تغيبت عن الفصل فجأة لمدة طويلة جعلت مني أحمقا تدور في رأسه مائة فكرة عن سبب غيابها المفاجئ وعلمت فيما بعد حتى استنفذت كل طاقتي أنها استقرت وعائلتها في بلد أجنبي، وقد حز في نفسي جدا رحيلها دون وداع، وفي غياب أوناي فقد اتخذت من شجرة "الكوريزيا" رفيقة لي، كنت أستيقظ باكرا قبل وجبة الفطور بفترة لا بأس بها وأتجه إلى الحديقة صوب الكوريزيا خاصتي فأبت لها همي و أسألها كيف لقلب صغير كخاصتي أن يعتصر من الألم، أشكو لها طويلا وأحضنها حضنا أموميا ثم أرحل، وقد استمر الحال على ما هو عليه إلى أن حلت العطلة الصيفية وعدت لبيتي مشتاقا ولأوناي أكثر وقد خففت علي رفقته سوء حالي..

المعزوفة 14

اشترى أوناي في غيابي دراجة هوائية، وقد وعدني في رسالة سابقة أرسلها إلى مدرستي بأنه سيعلمني قيادتها حال حضوري، ارتديت وسائد حماية الركبتين والمرفقين حماية لي من الخدوش و وضعت خوذة على رأسي ضمانا لسلامتي في حالة وقوعي أرضا، وقد خصصنا أرضية حديقتنا المسطحة كمساحة خاصة للتعلم الأولي، شرح لي أوناي أساسيات القيادة ثم جربت للمرة الأولى الركوب على دراجة هوائية لكنني سرعان ما وقعت، يكرر أوناي:

"لا بأس، لنعد مرة أخرى: ضع قدما على الدواسة واترك الأخرى على الأرض ثم حاول الدفع بها إلى الأمام ولتعمل بالقدم للأخرى على الدواسة، أبق المقودين بشكل مستقيم حتى تشعر بالتوازن، الجميع يسقطون لا بأس في ذلك، أعد مرة أخرى، التوازن يتحقق على سرعة ثابتة، لا تخف من الوقوع إن الدراجة تشعر بتخوفك فتوقعك، ادفع جسمك إلى الأمام، أحسنت، عمل جيد" !

ثم يصفق ويقفز فرحا بنجاحي، أعدت الكرة مرة ثم مرة وقد استغرق تجنبي الوقوع أسبوعا كاملا، انتقلنا بعدها لتعلم القيادة على المنحدرات والصعود على التلال ولا أنكر كفاءة معلمي الذي جعل مني في وقت قصير سائق دراجة محترف، وصرنا فيما بعد نتناوب على ركوبها وفي مدة قصيرة أصبحت لعبتنا المفضلة والأكثر إمتاعا طيلة العطلة الصيفية.

نادانا والد اوناي الى مكتبه الذي حرم علينا دخوله منذ سنوات بسبب تلك الحادثة لإخبارنا عن مسابقة تقام بعد شهرين للعب

الشطرنج وقد أراد منا نحن الاثنان أن نشارك فيها، أبدينا حالا استنكارنا وكيف لنا ذلك ونحن لا نفقه شيئا في هذه اللعبة فقال:

ءولذلك ناديتكما، أحضر يا أوناي رقعة الشطرنج من على مكتبي وضعها هنا على الطاولة، اجلسا أمام بعضكما البعض وأنصتا لي بتأن

التفتنا لبعضنا البعض بتعجب وبدلنا مقاعدنا وقلنا بصوت واحد:

_ "حاضر"

_ "أحسنتما يا صغار، وأما اليوم فسنتعرف على رقعة الشطرنج التي أمامك وسأترك لكم المجال حينما أنتهي من شرحي للاستئناس بها وبقطعها وسنرى في الأيام الموالية استراتيجيات اللعب، اتفقنا؟"

_ "باستغراب، نعم."

_ "الشطرنج لعبة رقعة استراتيجية يلعبها اثنان، لأحدهما القطع السوداء وللآخر البيضاء ولكل لاعب ما مجموعه ستة عشرة قطعة: ملك واحد، ملكة واحدة، قلعتان، حصانان، فيلان وثمانية بيادق؛ أما الملك فيسمى أيضا الشاه أهم قطعة في اللعبة وهي التي يسعى اللاعبان لأسر خاصة الخصم لتنتهي اللعبة ويقال :" مات الشاه"، وبالنسبة للملكة أو الوزير فهي تستمد قيمتها من عدد حركاتها الغير محدود إضافة إلى إمكانية تحركها أفقيا أو عموديا أو قطريا، القلعة أو الرخ تستطيع الحركة بعدد حركات غير محدودة عموديا أو أفقيا، أما الحصان فهو القطعة الوحيدة التي لم تتغير حركتها عبر الزمن وهي على شكل حرف اللام اللاتيني وتتمكن من تجاوز القطع والقفز عليها، ثم الفيل والبيدق وهو أضعف حلقة في اللعبة وأكثر القطع عددا، يتحرك حركتين إلى الأمام ابتدائيا ثم حركة واحدة في غياب قطعة أخرى أمامه، ما هي قطع رقعة الشطرنج إذن؟"

صرخ أوناي في حي ظللت صامتا:

_ "ملك وملكة وقلعتان وحصانان وفيلان وثمانية بيادق."

_ "أحسنت يا بني، لأترككما مع لعبتكما الجديدة ولنكمل درسنا غدا.."

حركنا رأسينا موافقين ونقلنا رقعة الشطرنج إلى غرفة أوناي وبدأنا في تدارس ما جاء به والده، نتساءل أيمكننا أن نتعلم؟ أ سنتمكن من الفوز ونحن حديثا العهد بالشطرنج؟ غرقنا في تساؤلاتنا إلى أن قاطعتنا سارمان وهي القطة التي تبناها أوناي في غيابي، احتضنها بين ذراعيه ولاعب فروها ثم عرفني عليها، إنها رفيقته التي آنسته في غيابي وإنني أخشى أن تفقده اهتمامه بي.

رفض والداه بشدة إدخاله سارمان إلى المنزل لكنهما وافقا على مضض بعد إلحاحه عليها بشرط ألا تتجول في المنزل كما يحلو لها، وإنني رغم حبي للقطط فإنني أمقتها لأنها تسلب مني صديقي الذي أحب، سألت أوناي مرة: من الأحب إليك أنا أم سارمان فقال دون تردد أنت طبعا ففرحت لذلك جدا وتخليت عن كرهي لها.

في حصة ثانية لتعلم الشطرنج وفي كل اللاتي بعدها علمنا والد أوناي كيفية التعامل مع قواتنا واستخدامها بشكل يجعلنا في مركز القوة وذلك بتعلم الاستراتيجيات الرئيسية للعب، تعلمنا بذلك استراتيجية المركز والسلسلة والانتشار واستراتيجية نابوليون بونابارت والفيانشيتو وغيرها. قضينا قرابة الشهرين ونحن نتدرب يوميا لمدة أربع ساعات متواصلة صرنا خلالها لاعبين قويين جدا بشهادة والده الذي وضع ملفات ترشحنا للمسابقة المقامة بعد أسبوع من الآن، كثفنا جهودنا وضاعفنا مدة تدريبنا وتخلينا طيلة أسبوع على كل نشاط آخر غير لعب الشطرنج.

_ "الاسمان المتأهلان إلى الدور النهائي شابان في الثالثة عشرة من عمرهم يظهر اسمهما للمرة الأولى مواجها أسماء محترفة عهدت الفوز، فليتنتقل جوهان وأوناي إلى مركزهما."

تصفيق حار وصوت والدي ووالد أوناي يرتفع: أحسنتما أيها البطلان.

نجلس نحن الغريمان على طاولتنا متقابلان متعهدان على نسيان صداقتنا طيلة مدة المباراة.

ءخصصت القطع البيضاء لجوهان والسوداء لأوناي، تفتتح المباراة بتحريك جوهان البيدق إلى ي4، احتمالات للحركة بعدها لا متناهية واحتمالات الرد محدودة، يحرك أوناي بيدقه إلى ي6، يرد بوضع بيدقه الاخر على د4، الحصان إلى ف6، حصان الخصم على ج3، يقوي جوهان قطعه الخفيفة بتحريك الوزير، بحركة احترازية دفاعية يحرك اوناي بيدقه الى ب5 لحماية البيدق الأقرب إلى الملك، يتواصل اللعب إلى أن يستسلم جوهان بعد محاصرة الشاه الخاص به فيعلن أوناي بطل المدينة في لعبة الشطرنج ويحصل جوهان على المركز الثاني *

قفز أوناي فرحا ناسيا الجمهور حوله وعانقني عناقا حارا وبادلته بالابتسام، عادة ما نفرح لبعضنا البعض لكنني أجهل سبب الغصة التي تمنعني من الفرح، هنأ الجميع أوناي وعلقت له الميدالية الذهبية ولي الفضية فأحسست بالغصة في قلبي تكبر شيئا فشيئا، أهي الغيرة؟ أتجعل مني محبا لذاتي أكثر من حبي للآخر؟ إنها تمنع التفكير المتعقل وتشوش العقل وتجعل من الشخص كائنا متفتتا يناقض مبادئه ومشاعره، كيف لي أن أغار من رفيقي؟ لماذا أرغب بشدة في تتويجي محله؟ أكان سيحس بنفس إحساسي الحالي إذ أنا فزت عليه؟

عانقته والغيرة تعتصر قلبي وعبرت له عن سعادتي بفوزه وأنا أختنق، وقد أغلقت علي بعدها غرفتي لثلاثة أيام لم ألعب فيها مع أوناي ولم أحدثه وتحججت بأنني منهمك في قراءة كتاب مهم وأنني محتاج إلى الهدوء، غير أنني قد قضيت جل وقتي بين البكاء والتساؤل عن سبب فوزه وفشلي إلا أنني قد نسيت الموضوع بعدها وعدنا رفيقين كما كنا سابقا.

وقعت بذهني فكرة؛ لماذا لا أستغل إتقاني لعلم التاريخ فأقوم بإنشاء كتيب عن أهم الشخصيات التاريخية وأقدمه كمشروع مدرسي، وبما أن أوناي رسام ماهر فسيساعدني في رسم بورتريهات للشخصيات الموصوفة. بدأنا في مشروعنا دون تردد حالما اقترحت الفكرة، وكان بذلك نشاطا آخر ينضاف إلى قائمة أنشطتنا في هذه العطلة الصيفية، ضمنا فيه ثلاثا وعشرين شخصية، فذكرنا جورج واشنطن أول رئيس لأمريكا ،ووالت ديزني مؤسس شخصيات والت ديزني كميكي ماوس، وبروس لي أحد رموز الرياضة القتالية ،ولويس باستور أحد أهم مؤسسي علم الأحياء الدقيقة في الطب ،وامنحوتوب أهم المعماريين على وجه التاريخ ،وتشي جيفارا رمز الثورة ،وهيرودوث أب التاريخ وأهم المؤرخين اليونانيين القدامى ،وغاليليو وهو الذي قال بأن الأرض تدور حول الشمس، وكريستوفر كولومبس أحد المستكشفين العظماء، و جريجور يوهان مندل أبو علم الوراثة...

وقد حصل كتيبنا على تقييم جيد جدا من طرف أبوينا مما جعلنا فخورين بأنفسنا جدا.

الجو حار اليوم، وقد صار ارتداء الملابس عبئا ثقيلا وهنا تكمن متعة السباحة عاريا في النهر الصيفي؛ إلقاء نفسك في الماء ومحاولة الثبات فيه دون الغرق، أن يكون جسدك عاريا طافيا فوق الماء أو قدماك كقدما راقصات الباليه تتحرك دون توقف، والأكثر إمتاعا الزفير تحت

الماء وقد كانت لعبتنا المفضلة أنا وأوناي، نأخذ شهيقا طويلا وننزل رؤوسنا تحت الماء ثم الزفير ببطء إلى أن نصل حدود تحملنا ونتنافس عن من أكثرنا صمودا، نكرر ذلك مرارا إلى أن نتعب ونستريح ثم نعيد الكرة، وقد اجتهدنا في لعبتنا هذه فأضفنا لها وضع المنافس يده على رأس الآخر قبل أن يخرجه من الماء، وقد كنت من أبدأ أولا في كل مرة، أنزل أوناي رأسي وأزال يده حينما أحس بي أختنق فخرجت باسما :

_ "لنرى حدود تحملك أنت أيضا، لن يهزمني أحد"

أنزلت رأسه عميقا ثم انتظرت لدقيقة قبل أن أرفع يدي، لم يرفع رأسه، ناديت بخوف : أوناي، لكنه لم يجبني، صرخت أوناي ولم يجب، وأنا أستعد للغوص برؤيته رفع رأسه ضاحكا:

_ "أ خفت؟ لقد هزمتك يا صاحب"

ثم يضحك فضحكت معه، توقفنا على اللعب حينها فالخوف قد تملكني ولم أتمكن من الاتمام غير أنها الواحدة وخمس وعشرين دقيقة الآن وقد حان وقت الغذاء، عدنا سويا لكني استشعرت غرابة في أوناي فقد ظل صامتا طول الطريق على غير عادته، افترقنا وعاد كل منا إلى منزله.

أخذت قيلولة صغيرة بعد الغذاء إلا أن صفير سيارات الشرطة قد أيقظني، سمعت من أمي أن أوناي مفقود، ركضت حافيا إلى الخارج أستفسر عن ما حل بصديقي

وقد قيل أنه لم يعد للمنزل منذ أربع ساعات، خفت جدا ولم أتمكن من النوم ليلا يومها إلا بعد جهد كبير غير أن أوناي قد أيقظني بعدما غفوت فعانقته باكيا ثم سألته عما جرى وعن سبب غيابه فقال مبتسما:

_ "لم أغب، لقد كنت حاضرا فقد لم يروني، وإنني أعلمك بأن والداي يريدان الرحيل إلى مدينة أخرى وإنني لن أرافقهما لأبقى معك وفي رفقتك دائما. "

ولا أنكر أن ذلك قد سرني جدا.

استيقظنا صباحا على صوت نحيب أم أوناي وقد رفضت أمي إخباري عن سبب بكائها وقالت : لا بأس يا صغيري ثم عانقتني بحرارة لم أعهدها من قبل وقبلت رأسي.. كنت سعيدا يومها وقد خرجت رفقة أوناي إلى الغابة لنقطف بعض التوت البري ونلعب قليلا وعندما عدت مساء وجدت والدا أوناي يوظبان أغراضهما للمغادرة ولم أتفاجأ لأنني أعلم ذلك سابقا، وقد ظللت ألتقي بأوناي بعدها بشكل يومي وقد غادرت المدرسة الداخلية سنتها بطلب من أمي، وعدنا ندرس سويا في نفس المدرسة لكن في فصلين مختلفين.

المعزوفة 13

طلبت من أوناي أن يرافقني لتنظيف مكتب المدير بالجامعة، أزحنا المكتب والكراسي ثم شرعنا في التنظيف، فتح أحد ضباط الشرطة الباب بقوة وإذ به يتوعد ويهدد فوضحنا له سبب قدومنا وبأننا ضمن فريق شركة التنظيف الخاصة بالمؤسسة، لكنه اتهمنا بالكذب فعمال النظافة لا يعملون بعد التاسعة مساء، أمرنا بالمغادرة لكننا أبينا إلا أن نتم عملنا وأمام تعنتنا اشتد غضبه ووجه لنا مسدسه فتراجع أوناي وبقيت صامدا إلى أن أحسست بالدماء الساخنة تنبعث من صدري واسودت الرؤية لبضع دقائق صامتة ثم وضحت شيئا فشيئا فوجدت نفسي متكئا على دفتر مذكراتي والقلم بيدي، تفقدت هاتفي فإذ بي أجد عشرين اتصالا هاتفيا من والدي غير مجاب عنها ورسالة صوتية يقول فيها بصوت باك :

_ "جنازة والدتك في الخامسة مساء، أرجو منك الحضور."

قمت للمطبخ لأحضر فطوري فأنا أشعر بالجوع، قررت تحضير بيض مقلي لليوم وبعض النقانق والفطر والفاصوليا والطماطم المطبوخة، فشهيتي للأكل مفتوحة جدا اليوم خصوصا بعد اتصال والدي. دونت فيما بعد بعض الأفكار التي وقعت بذهني فجأة قبل أن أنساها بينما تركت اوناي في الغرفة المجاورة يطالع بعض الكتب لكنني لم أجده حينما انتهيت بينما لمحت ملحوظة تركها لي يقول بأننا سنلتقي في الجنازة غير أنني لم أخبره بذلك فمن أين قد علم به؟

ارتديت قميصا أسودا وطقما أسودا وربطة عنق سوداء وحذاء وقبعة سوداوين أشبه بسوادي ملاك الموت، استقليت الحافلة إلى موقع

الحفل، ووقفت بعيدا خلف شجرة الآس أراقب مراسم تشييع جنازة أمي وهي تزف إلى الأرض، وقد اختير لها فستان أسود طويل يتجاوز الركبتين بقليل من قماش التويد لتكون طلتها الأولى تحت التراب. تناوب كل من إخوتي ووالدي على إلقائه على وجه الصندوق الخشبي بينما عجزت عن التقدم لمشاركتهم في ذلك، تلاها تقديم كلمة الوداع الأخير بين البكاء تارة والنواح تارة أخرى، غير أنني لم أبك ولم أستطع تكوين أي شعور مناسب للحظة وبصيغة أدق عجزت عن كل شعور، يحدث أحيانا أن أصير محايدا في كل الأحاسيس فلا يتناسب ما أشعر به مع الحدث المقدم غير أنني في الآونة الأخيرة ومنذ أن بدأت في تدوين مذكراتي توقفت عن الشعور، أرغب في ملامسة قلبي المتوقف عن العمل لعلني أخرج منه بعض الأحاسيس التي تجعل مني إنسانا لا رجلا آليا يتصرف وفق ما ينبغي فعله في موقف ما بتصوره للإحساس المرافق له لا الشعور به، كيف يمكنني أن أكون شخصا إن كان شعوري غائبا؟ أليست العواطف ما يجعل من الإنسان ذاتا فاعلة؟ أ يمكن للوعي أن يتشكل أو يبنى في غياب الشعور؟ أ أكون موجودا؟

ربت أوناي على كتفي وقال :

_ "أ أنا موجود؟"

_ "وكأنني أرى العالم من وراء حجاب وكأن روحي معلقة بعيدا تحجبها عن الواقع ضبابيته، أ نحن موجودان؟"

شابكنا ذراعينا وتمشينا مترنحين نحو البيت، وما إن فتحت الباب حتى استلقيت مباشرة فوق الأريكة مثقلا بأفكاري حول الوجود، هل يحتاج وجودنا بالضرورة معرفتنا بهذا الأخير وبصيغة أخرى هل جهلنا بوجودنا يجعلنا غير موجودين؟ هل تعدد التعريفات يجعل من كل وجود منها واحدا خاصا مختلفا عن الآخرين؟ ففي اللغة الفرنسية: لي

تيرمي ذيخيستينچي ين سوي يست " "امبيعو أي أن المفهوم غامض ،وفي اللغة الإنجليزية : ىخيستينچي هاس بيين فاريووسلي ديفينيد بي سوورچيس أي أنه يختلف حسب المصادر في ما يعني باللغة الألمانية الكينونة الانسانية : مينسچهليچهيس ضاسيين وبالاسبانية حقيقة الكيان :لا ريالياداد دي ون ينتي، إن فهل وجود الفرنسي مختلف عن الاسباني والانجليزي والألماني؟ وكيف يكون حال من يتقن الأربعة معا؟ أيتغير وجوده بتغير لسانه؟ على أي أساس يتم تعريف المفاهيم؟ ما المفهوم؟ صرخ أوناي متحمسا:

_ "يعرف المفهوم بارتباط عدد من المكونات غير المتجانسة فيما بينها وعدم قدرتها على الانفصال عن بعضها البعض* "

_ "هآ"

_ "إن تكوين المفاهيم هو طريقة لممارسة الحياة، وليس لقتلها. إنه كيفية للعيش في حركية نسبية، وليس محاولة لتجميد الحياة. إنه الإعلان عن التجديد الذي نمتلك حرية إيجاده كما نشاء، ويتم هذا الإعلان وسط هذا العدد الذي لا يحصى من الأحياء* "

_ "من أين لك بكل هذا؟"

_ "من وحي الرب، صمت قليلا ثم انفجر ضاحكا فضحكنا معا.. "

اشتهيت كعكة بالتفاح فاقترحت على أوناي المكوث معي الليلة حتى يتذوق أول كعكة سأصنعها بعد خمس وعشرين سنة من التذوق فقط، بحثت في كتب الطبخ المخزنة في مكتبتي ثم طلبت من أوناي أن يملي علي مقادير إحدى الوصفات بينما أنفذها أنا بحذافيرها؛

_ "ضع في إناء زجاجي بيضتين"

_ "تم ،وماذا بعد؟"

_ "6 ملاعق سكر و4 ملاعق زيت و 7 ملاعق حليب"

_ "تمهل قليلا ، ماذا بعد الزيت؟"

_ "7 ملاعق حليب ثم 9 ملاعق طحين وكيس بيكنك بودر"

_ "سأكتفي ب7 ملاعق طحين فقط فملعقتي تعادل الملعقتين، ماذا بعد؟

_ "ضع التفاح ثم أدخلها للفرن. "

اتصلت بسارة اتصال فيديو حتى أريها أعجوبتي، و ما إن رأتها حتى انفجرت ضحكا،

_ "ما بال ذلك التفاح موضوعا هناك؟"

أجبت ببلاهة :

_ "إنها كعكعة تفاح"

فانفجرت ضحكا مرة أخرى:

_ "يقصد بالتفاح ان يكون مقطعا شرائح رفيعة ومرتبا على شكل وردة مثلا فوق الكعكة وليس وضع التفاح كما هو، أخبرني عن طريقة التحضير؟"

_ "هممممم، وضعت السكر والبيض.. ثم صرخت: اوناي أحضر الوصفة من فضلك"

_ "تمهل، أخبرني فقط ماذا فعلت بالمقادير؟"

_ "أدخلتها للفرن"

_ "وماذا سبق ذلك؟"

_ "وضعها في الإناء الزجاجي، لقد أكد أوناي أن يكون زجاجيا. "

_ "أ لم تخلط المكونات مع بعضها البعض؟"

_ "لم يذكر اوناي ذلك"

دوت ضحكتها عاليا ثم طلبت مني تذوقها فبصقت أول قطعة لبشاعة مذاقها، ثم قالت ساخرة وساحرة:

_ "كيف وجدتها أيها الشيف البارع؟"

وقد ظلت تناديني بالشيف بعدها وقتا طويلا لكنني ظللت جاهلا لسبب فشل وصفتي.

المعزوفة 12

أجلس على حافة السرير أتأمل جسدي الممدد على ظهره والماد يديه فوق رأسه، ينام بعمق وكأنه في غيبوبة لمدة ثلاث وعشرين سنة، حاولت هز جسمي لإيقاظي لكني عجزت عن ململته قيد أنملة إذ كان كتمثال صخري قد نحت عليه وجهي، وفور رف جفني مرة تغير الوجه ليصير لأوناي وقد تحرك معي هاته المرة فاستيقظ هلعا، طمأنته إلى أن عادت الحمرة إلى وجنتيه ثم تناولنا الفطور معا، تساءلت لماذا لا أعرف رقم هاتفه رغم أنني أعيش رفقته دهرا فأجابني بأنه لم يقتني هاتفا لعدم لزومه في حياته، فالهاتف في نظره يسبب السرطان لما ينتجه من إشعاعات وبالتالي الوفاة مبكرا أما هو فيطمح للخلود وبذلك فإلغاء كل ما يمكن أن يؤثر على جودة الحياة ضروري .

لا يملك أوناي حسابا في أي من مواقع التواصل الاجتماعية ولا وسيلة يمكنني بها الوصول إليه غير التفكير به، لم يحدث أن التقى بسارة إذ يغيب في كل مرة حضرت بها ولم تتحقق بعد رغبتها في التعرف عن صديقي الحميم ورفيق طفولتي، طلبت مني مرة صورة له إلا أنني لم أجد واحدة بعد سن الثالثة عشرة، لم نلتقط لبعضنا البعض صورة منذ ذلك الوقت فحاولت أن أفعل حال حضور أوناي لكنه غضب غضبا شديدا وتوعدني بإلغاء صداقتنا إذ أنا فعلت فما كان مني إلا الخضوع حفاظا على علاقتنا رغم جهلي لسبب هذا الرفض الغريب .

بينما أتفحص وجهي في المرآة وبين رفة عين وأخرى لاحظت صعود جفني السفلي أثناء إغلاق عيني، تساءلت ألا يفترض بجفني العلوي النزول بدل السفلي؟ تفحصت العين الأخرى وإذ بها كمثيلتها، أيقظت أوناي من نومه وقلت أن أغمض عينيك ثم افتحها مرة تلو أخرى فقال

مستهزأ ألا تذكر أنني لا أغلق عيناي إلا أثناء النوم وإنني محروم من ذلك أثناء استيقاظي، خمنت ألا يرف له جفن؟ لم ألحظ ذلك من قبل وقد حرصت على مراقبة عينيه حتى أجد دليلا يمنعه من خداعي مرة أخرى لكنني سهوت؛ تذكرت فجأة حلما رأيته قبل شهرين، حلمت بأنني فتاة، نعم فتاة ولي من الإخوة الذكور أربعة، وحدث أن تسللت خلسة في إحدى الليالي لألتقي برفاقي والذين أخذوني قسرا بسيارتهم إلى قاعة رقص وقد أرغموني لمرافقتهم للداخل مستعملين سكينا غير أنني قد ضربت أحدهم و هربت وأثناء ركضي وجدت كل الشوارع مكتظة بمجموعات متفرقة من بائعات الهوى وأذكر أنني كنت أركض بكل سرعتي لكي لا يراني أحدهم بجانبهن فيظن أنني رفيقتهن وبداخلي من مشاعر الخوف والندم الكثير، ثم تسللت مرة أخرى إلى البيت غير أن أناي العليا لم تسمح لي بالنوم فتوجهت إلى أخي النائم وأخبرته بكل ما جرى لي ثم بكيت بكاء شديدا فعانقني عناقا طويلا مطمئننا إياي: أنت بأمان. وتلاه في اليوم التالي أن حلمت مرة أخرى بأنني فتاة وبأن لي أخا وأختا وأما نستقل سيارتنا التي اشتعلت فجأة بالقرب من محطة الوقود، فركضنا غير عالمين باتجاهنا نبتغي الابتعاد قبل انفجار السيارة وقد مررنا خلال هروبنا بمصفاة نفط ومجموعة محلات خاصة بالصباغة وكل واحدة منها خطر انفجارها أشد وقد ضللنا نهرب من الوقت الكثير إلى أن وجدنا أنفسنا داخل منزل من طابقين؛

_ "هل من أحد؟ أيمكننا الدخول؟ "

تركت الآخرين في الأسفل وصعدت الدرج ببطء وجدت على يساري قبل أن انتهاء الدرج غرفة تشبه غرف المدارس؛ طاولات ولوح وميكروفون، اعتليت ما تبقى من السلالم وإذ بي أمام رواق طويل به

غرف على يميني وشمالي وواحدة أمامي تنبعث منها موسيقى صاخبة، تراجعت خطوتين للوراء ثم تقدمت في حذر أحاول أن أسترق السمع:

ما الذي تفعله؟ لا أستطيع الانتظار، قلها بالكلمات، قلها، قل إنني حقيقي، أريد أن..أريد أن.. أريد أن أرتقي *...

فتحت الباب بخفة وأدرت عيناي في المكان فإذ به فارغ تماما إلا من سريرين مغطيين بالأبيض ومسجلة قديمة تغني، أطفأتها ثم ناديت على البقية حتى نتفقد ما بقي من غرف. كانت إحداها كالأرشيف علمت من خلالها أن المكان يرتاده كل ثمان وأربعين ساعة أحد رجال الدولة الكبار أو رجال الأعمال وتأتي بالمقابل فتيات لإمتاعهن، فكرت بما أنه لا بيت لنا لم لا نتخذ هذا البيت ملجأ لنا ونعمل ليلا انا وأختي بدلا من أولئك الفتيات، وافقت أمي و أخي على أن يعمل كقواد، ونحن كبائعات هوى، وبالمقابل لنا مسكن نعتني به وننظفه أيضا، اهتمت أمي بالعناية بنا وبجمالنا وقبل أن يأتي الضيوف أخذنا حماما ساخنا، بالأسفل أصوات شجار بين أخي ورجلين غريبين، نزلت مسرعا وقلت لأحدهم تفضل معنا نحن هنا لأجلك، صافحني وأطال في ذلك، ثم صعدنا سويا، غير ملابسه ولبست أنا سروالا وقميصا، حملني بين ذراعيه إلى السرير فإذ بي أنام بينهما، استيقظت فجرا وجدت نائما متكورا على نفسه وعلمت صباحا بأنه لا يمس أي فتاة لمشكل أجهله، طلب مني ملأ الشيك برقم أريده لكنني رفضت وقلت بأنني لست بغيا لأقبض أجرا ثم استيقظت، تحسست وجهي فإذ بيدي تمر بشاربي ولحيتي فأسعد أيما سعادة بهما، إنني رجل..

من المخزي أن أكون امرأة؛ كائنا متحكما به وضعيفا يحتاج للحماية الدائمة، إن المرأة سبب ما لا سبب له. أن أكون رجلا يعني أن أكون بطلا أو حاكما لا يجرئ على أذيتي ولا المساس بكرامتي أحد، كيف أكون امرأة وعدد النساء المغتصبات يفوق ضحايا حوادث السير، يا

له من رعب! وبعيدا عن الانسان فالسلطة الدائمة عند الذكر مهما كان نوعه.

لا أستطيع التحكم في مواعيد نومي، فبين استيقاظ وآخر أجد نفسي غارقا في حلم جديد، وجدت نفسي هاته المرة أمام رفوف من الكتب المصورة، فاخترت اثنان منها لإعجابي بهما غير أن خلال محاولتي تصفح الكتابين أمام سارة وجدتهما نسختين من الكتاب المقدس، ففهمت أنه علي أن أقرأ الكتب المقدسة لحكمة أجهلها وقد كان ذلك أول ما قمت به حين استيقاظي خوفا وطاعة في آن واحد.

تساءلت ماذا لو كنت مواطنا من بلد آخر وثقافة أخرى ورأيت الحلم نفسه أكنت سأقرأ نفس الكتاب الحالي أم أنني سأقرأ ذلك التابع لثقافتي؟ لو كان بإمكاني الاختيار بينها جميعا كيف سيمكنني التحقق من الصائب منها؟ أيمكن أن تكون جميعا صحيحة لكل الثقافات؟ أ الصحيح منها الأفاستا الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية أم الباجافادجيتا الكتاب الهندي المقدس أم الدراشا كتاب تعاليم ومواعظ آخر أنبياء الصابئة المندائيون يحيى بن زكريا، أم التوراة السامرية أم باقي الكتب السماوية؟ كيف أمكن تكوينها جميعا؟ لا أهتم حقا فكتابي الخاص هو الصحيح حاليا إلى أن يثبت العكس.

المعزوفة 11

ترآآك ترآاك ترآك تراك ترك ترك توقظني فزعا؛ فإذ بي أجد أوناي يضرب المقلاة بالملعقة ليوقظني بعد استغراقي في النوم طويلا وفقدانه الأمل في استيقاظي لوحدي لتأخري على موعدنا، فقد تعاهدنا البارحة أن نصيد معا هذا الاسبوع. سمكتي تقاوم الصنارة وتتلوى محاولة التخلص من الخطاف غير أن الخيط قد التف حول عنقها فماتت مشنوقة لا غرقا في الهواء، هل اختارت السمكة طريقة موتها حتى لا تكون اعتيادية؟ أكانت حياتها قبل موتها مميزة كموتها؟ إذا كان للسمك القدرة على اختيار كيفية موته فلماذا لا أختار أنا أيضا؟

طرق الموت الموجودة ومن ما الطرق الأنسب للاختيار؟ ما الأسرع والأقل ألما؟ ما الألم؟ هل سبق أن قلتم نعم للذة؟ أوه أصدقائي* لماذا نرفض الألم؟ يقال أن الألم يهدف لإخبار الشخص أن هناك خطأ ما أو خطرا أو تهديدا، لكن ماذا لو اعتبر الألم لذة أ يكون له نفس الهدف؟ ما الذي رآه ماركيز دي ساد في الألم حتى جعل منه فلسفته في الحياة؟ وكيف حذا حذوه هولاكو وهتلر وغيرهم؟

أيوجد موت غير مؤلم؟ أليست فكرة الموت بحد ذاتها مرعبة؟ كيف يمكن تفضيل رعب على آخر وألم على ألم؟ أفكر: أ أريد أن أموت؟ ألم يكن ذلك قراري منذ الثالثة عشرة من عمري؟ أأنا متردد بعدما فضل احدى عشرة يوما فقط؟ أريد الموت وسأختار طريقة موتي وسأجابه العالم.

حلمت اليوم بماثيو يمسك يد لوغان ويختفيان في البحيرة، أدركت أنهما انتحرا غير أنني لم أكن أجيد السباحة في حلمي هذا لأنقذهما فبقيت أنتظرهما حتى المغيب، ثم كل الأيام الموالية لعلهما يتراجعا عن فكرتهما وينقذا أنفسيهما. حينما استيقظت أدركت أن هذا الحلم رسالة تساعدني على أخذ قراري إذ مدني بالطريقة الأولى الممكنة للانتحار وما علي إلا أنتظر اليوم الموالي لأحصل على طريقة جديدة.

ما الذي يعنيه الموت غرقا؟ استعمل الثوار الفرنسيون الغرق كطريقة للإعدام الجماعي وكبديل للإعدام الفردي بالمقصلة وقد استخدمت هذه الطريقة لمئات السنين إلى أن تم حظرها في القرن السابع عشر. وقد تم تعريف نوع آخر من الغرق بعيدا عن المتعارف عليه وهو الغرق الجاف، إذ تمتلئ الرئتان بالماء مما يسبب انقطاعا في الاوكسجين ومنه الوفاة في غضون ساعة، أما الغرق الاعتيادي فهو بعيد كل البعد عن الغرق السينمائي الذي يحاول فيه البطل إنقاذ نفسه وطلب النجدة! فعند الغرق الواقعي تحدث ظاهرة الاستسلام للغرق، فالخوف المصاحب له يتملك الجسم ويشنجه ويجعل منه قطعة واحدة يسهل وصولها لقعر المحيط، أما الغرق الثانوي فيحدث حين وقوع الشخص في الماء البارد جدا.

أيغرق السمك؟ يقال بأن سمك القرش يغرق إذا توقف عن السباحة، فخياشيمه غير مكيفة للحصول على الاوكسجين دون دخول المياه اليها، وقس على ذلك سمكة التونة الزرقاء، وإذا أصيبت السمكة بمرض في أحد أعضائها فإنها تغرق، وعند سباحتها في مياه غير مشبعة بالأوكسجين تغرق أيضا. من الذي يغرق أيضا؟ ماثيو ولوغان وأنا وأوناي وسارة والجميع.

سأحظى بعشائي اليوم وحيدا فأوناي مشغول للغاية حسب ما ذكر، وسارة في مداومة الليلة، وسمكتي الميتة غرقا في الفرن مع حبة بطاطس وحبة جزر وحبة طماطم وبصل أخضر وشرائح الليمون، مرفوقة بسلطة سيزر وعصير ليمون وخبز فرنسي شهي، غير أن ضيفا مفاجئا قد أتى، طفل رأيته وأنا في عمر العاشرة يدخل غرفة نوم والداي يلبس قميصا مخططا بالأزرق والأبيض، لا أعرف لا اسمه ولا هويته، دخل هاته المرة إلى الحمام ولم يخرج، ألم يكبر هذا الطفل؟ لم أدخل ليلتها إلى الحمام بالرغم من رغبتي في التبول أنتظر خروجه.

من يكون؟ أأهلوس؟ ما الهلوسة؟ أهي الإحساس في حالة اليقظة بمحسوس غير موجود؟ كيف نميز الهلوسة من الحلم؟ أأحلم؟ أيكون الحلم في حالة وعي؟ ما الوعي؟ أهو الإدراك أم الاحساس؟ ما الادراك؟ وما الاحساس؟

هل أشبه سقراط في طلبي المتواصل لتعاريف المفاهيم؟ وهل أتبع منهجه الذي قدمه أفلاطون في محاورة تياتيتوس تحت اسم فن التوليد أي توليد التعاريف الضمنية للمفاهيم؟

تركت المصباح مضاء ونمت.

المعزوفة 10

وصلتني الرسالة الثانية؛ مسلح بسكين بوكوكوP) ووككو (هجم على محطة المترو، وفي حين أطلق الجميع سيقانهم للريح عجزت عن الحركة ثم استيقظت، وصرخت كأنني قد اكتشفت طريقا للكنز: الطريقة الثانية للموت: استعمال سلاح أبيض.

فيما يمكنني استخدامه؟ ما الطريقة المثلى أ الذبح أم الطعن أم الانتحار بقطع شرايين معصمي؟ ما الأسرع؟ قالت سارة مرة بعدما أنقذت إحدى المراهقات المحاولات للانتحار بأن أغلب المتطفلين على الموت غير متمرسين، وان أغلب الراغبين في قطع معاصمهم يغفلون المرور بأحد الشرايين مما يجعل موتهم بطيئا جدا وبالتالي إنقاذهم واردا، أ يريد المنتحر إنقاذه؟ كيف يغفل الآخر رغبة البعض في الموت ويعارض قدرهم؟ أ يعقل أن تكون مجرد مسرحية للحياة من جديد بعد كسب تعاطف الجميع؟ أ يمكن أن يكون تسبيب الأذى للنفس مجرد رغبة في الظهور: شاهدوني أنا هنا، أنا موجود؟ أ يحصل أن يكون إثبات الوجود مؤلما لهذه الدرجة؟ أ الانتحار أذى؟ أ الوجود صعب؟ ما الانتحار وما الوجود؟

جاء صوت من غرفة الجلوس: الوجود هو نحن ثم ضحك وعلمت من نبرة صوته أنه أوناي فضحكت أيضا، سألته :

_ "أتقرأ أفكاري؟"

فقال بنبرة جادة:

_ "أنا أفكارك"

كيف يمكن لشخص أن يكون فكرة؟ أيمكن أن يكون أوناي مجرد تصور في عقلي؟ أيمكن أن يكون شخص محسوس غير موجود؟ هل من الممكن أن تخدعنا حواسنا وأن لا تمدنا تجاربنا الحسية بنتائج حقيقية؟ إن الحواس تخدعنا من وقت لآخر فهي لا تدرك دوران الأرض حول نفسها، ولا المسافة التي تبعد عنا بها السماء، ألا تبدو النجوم قريبة ليلا وحجمها صغيرا جدا..؟ غير أنني لا أستطيع الشك في رفيق طفولتي بالرغم من شكي في حواسي فمشاعري تمنعني من الشك.

لي موعد مع سارة هذا المساء في مطعم كباب على المدخل الرئيسي للمدينة لنناقش تفاصيل خطوبتنا، أخبرتني بضرورة إحضار والدي للتقدم لخطبتها، لكن كيف يمكن تجديد روابط الدم بيننا لنستطيع التحدث من جديد فنحن لم نتواصل منذ وفاة والدتي، أحبني والدي جدا لكن منذ أن انتقلت أسرة أوناي لخارج المدينة ازداد قسوة وسوء في تعامله معي، تغير العالم تجاهي منذ ذلك الوقت وصرت منبوذا ومكروها من الجميع إلا أوناي الذي لم يتغير حبه تجاهي، تم رفضي اجتماعيا باستبعادي المتعمد من العلاقات الاجتماعية فوجودي في الكثير من الأماكن غير مرحب به وغير باعث للاحترام، كل طلباتي تقابل بالرفض الطاغي على أغلب علاقاتي الاجتماعية والعدد الاجمالي لأصدقائي واحد فقط، كيف يمكنني الشعور بالارتياح وأنا قد نبذت من عائلتي قبل كل شيء؟

منذ الثالثة عشرة من عمري توقفت على الانتماء لعائلتي ومن تم لمجتمعي ثم مدينتي وبلدي، أنا لا أنتمي إلا لروحي وجسدي اللذان لم يخوناني.. أوقفني صوت النادل عن التفكير آمرا إيانا بمغادرة المطعم لسبب أجهله، تفاجأت من سلوك سارة التي ودعتني وغادرت دون أن تستنكر هذا التصرف، ألم يكن الزبون المحق دائما وراحته من

أولويات المحل؟ ولم يتوقف عند ذلك بل أمسك بذراعي وجرني جرا إلى الخارج وأنا أتوعد بأن لا تطأ قدمي هذا المطعم مرة أخرى وبأنني سأرفع دعوة قضائية عليهم لإساءتهم لزبون، انتفضت وأرعدت وأزبدت لكنني شعرت بهدوء غريب قد تملكني فجأة ثم وجدت نفسي في سريري نائما وعلى رأسي أوناي يغير كمادات الماء الفاتر على جبيني ثم يقيس حرارتي التي تجاوزت الأربعين لسبب أجهله؛ أهذي باسم سارة أن لا تتركني وحيدا فأنا كائن لا يحتمل التخلي مرة أخرى، ستكسر روحي إن رحلت ولن يجبر بخاطري إلا أخذ انتقامي لكن الانتقام كما كانت تقول أمي كأكل العصيدة الباردة لا مذاق له. لا أدري مالذي أصابني الليلة لكنني أشعر بروحي تجول حولي ثم تتلبس جسدي فأفتح عيناي وأرى أوناي كما تركته يغير الكمادات على رأسي ثم تغادرني من جديد وهكذا دواليك إلى أن بزغ صبح جديد.

المعزوفة 09

لم أعتد نور الغرفة إلا بعد جهد، أدرت مقلتاي في رأسي أحاول تحديد معالم المكعب الذي وجدت نفسي فيه، جدران الغرفة خمسة لا أربعة كما اعتادت المكعبات أن تكون، من حدد ضرورة وجود أربعة أوجه للمكعب؟ إنني أراه مكعبا وبخمسة أوجه، أرضية الغرفة وسقفها أيضا بيض بياضا ناصعا ليس بهم شائبة غير خطاف كالذي يعلق عليه اللحم في المجازر يتدلى من السقف، ليس بالغرفة متاع إلا كرسيا أبيضا بدون ظهر وحبلا أبيضا، قاطع تفقدي للمكان صوت يخرج من مكبرات الصوت التي تحيط بالغرفة والتي لاحظتها للتو:

_ "مرحبا بك في مكان انبعاثك الجديد، ستتبع ما سآمرك به خطوة خطوة وكل مخالفة لأمر يعرضك لفقدان امتيازاتك لتتمكن من الخروج من رحم هذه الغرفة لتولد من جديد، هل فهمت؟"

لم يترك لي فرصة لاستيعاب ما جاء به إذ أكمل:

أخطو ثلاث خطوات للأمام وأربع على اليمين..

أنفذ.

_ "انحن تسعين درجة، مد يدك نحو الأرض والتقط الحبل، خد جزء ثابتا بطول المتر، خد نصف متر من جهة النهاية وقم بعمل شكل س بسيط، خد الجزء المتصل من الحبل ومرره تحت كل ثلاثة أقسام من المنحنى على شكل س، أحسنت عملا، لف نهاية الحبل مرة أخرى حول الجزء العلوي من الحبل ثم عد إلى الأسفل، استمر في اللف، مرر نهاية الحبل ن خلال الحلقة السفلية من عقدة المشنقة، اسحب عقدة المشنقة وكذلك الحبل الثابت لإحكام العقدة.. * "

صرت كرجل آلي ينفذ الأوامر فقد ولا يدري إلى أي طريق يجره ذلك، توقفت لبرهة لأفكر لكنه صرخ بي وكأنه قد قرأ أفكاري:

ءلا فرصة لك هنا للتفكير، التفكير يجر للهلاك فقط، اتبع ما آمرك به فقط وستنعم بالخلاص.. خد المشنقة التي صنعتها وعلقها بإحكام بالخطاف على السقف، سيساعدك الكرسي للوصول إليه، بتلك الطريقة تماما، ابق على الكرسي، أدخل رأسك وسط فتحة المشنقة، شدها، انظر نظرتك الأخيرة، ادفع الكرسي من تحتك..

الصوت يبتعد:

_ "ثم مرحبا بك في عالمك الحقيقي.. "

لا أرى إلا الفراغ ومن حيث لا أدري صفعت، فوجدت أوناي على رأسي يقول أن استيقظ وجسمي يتصبب عرقا وحلقي جاف، استغرقت وقتا لأدرك أنها الهلاوس التي تسببت فيها الحمى، لكنني قد فرحت مرة أخرى وكأنني قد وجدت كنزا جديدا وقلت بصوت مرتفع:

_ "الطريقة الثالثة: الشنق"

ثم جلست على سريري وأحسست بأن المرض قد غادرني وبأن الحياة قد دبت في من جديد، طلبت من اوناي مغادرة غرفتي لتركي أفكر في اكتشافي الجديد، ثم قفزت في أرجاء الغرفة فرحا أن وجدتها.

وجدت في إحدى المجلات أن ثلاثين ثانية كافية للموت باستخدام هذه الطريقة غير أنها تمر كأطول ثلاثين ثانية في حياة الفرد ويرى فيها شريط حياته منذ وجوده في رحم أمه إلى وضعه حبل المشنقة حول عنقه، أيمكن أن يكون تذكير المرء بالأحداث السعيدة في حياته سببا في توليد الرغبة في الإبقاء على حياته؟ ماذا لو أعيد شريط حياتنا قبل أن نقدم على هذه الخطوة أكان ذلك سيغير من أقدارنا؟ هل الانتحار

تعاسة أم هروب من التعاسة؟ أيمكن اعتباره من الأحداث السعيدة؟ أنكون سعداء بإثبات وجودنا أو إلغائه؟ الذي يدفع المرء للانتحار أ واقعه أم مستقبله؟

قاطع حبل أفكاري أوناي وهو يدعوني للغداء بعد تحضيره إياه؛ سلطة أوليفي بالبطاطس المسلوقة والجزر والخيار المخلل والبيض المسلوق والبازلاء وصلصة المايونيز وبعض الأعشاب، وخبز الخاتشابوري بالجبن و حساء البورسشت من الشمندر الأحمر ولحم البقر مع بعض التوابل والأعشاب، يا له من غذاء ملكي؛ أكلت وكأنني لم آكل منذ سنة وتركت أوناي مشدوها من شهيتي المفرطة ويضحك من شراهتي غير المعتادة:

_ "وكأنك غول يأكل.. "

_ "ليس لي وقت للضحك فأنا مشغول بالأكل، سأضحك على نكتك بعدما أنتهي.. "

فضحك حتى بدت نواجده وشاركته في الضحك، غير أن قارعا على الباب قد قاطعنا، قام أوناي لفتح الباب، أسأله:

_ "من هناك؟ "

فلا يرد، قمت بدوري أتفقد الطارق وأوناي فإذ بي أجد الباب مفتوحا وأوناي غير موجود ولا طارق، بحثت عن صديقي في الارجاء لكنني لم أجده، وبين الهلع والدهشة أغلقت الباب وبحثت على هاتفي لأتصل به إلا أنني تذكرت بأنه لا يملك هاتفا، جلست على المائدة وقد سدت شهيتي فإذ بي أقفز فزعا بعدما أحسس بيد على كتفي، استدرت فإذ به أوناي يستمتع بإفزاعي، وقد توعدت برد الصاع صاعين ثم ضحكنا معا..

وضع أوناي أمامي رقعة الشطرنج ومن عينيه المتوسلتين فهمت أنه يريد مني مشاركته اللعب غير أنني قد رفضت، فمنذ خسارتي منذ اثني عشرة سنة تعهدت أن أعتزل لعب الشطرنج فأنا لا أرغب في معاودة الاحساس بألم الخسارة، وأوناي يعرف تمام المعرفة أنني أرفض اللعب لكنه يتوسلني في كل مرة، أتساءل ما الذي سيجعلني أخسر بالتأكيد؟ ماذا لو ربحت ألن أعوض مرارتي الماضية؟ لماذا تكافئ الخسارة في عقلي الفشل؟ ألا يمكن أن تكون أولى محطات النجاح؟ من لا يخسر؟ فكرت بصوت مرتفع:

_ "أنا"

ثم أكملت تفكيري صامتا: أنا لا أخسر، الخسارة للحمقى ويكفي أنني كنت أحمقا مرة، ويغفر لي ذلك أنني كنت طفلا، لكن كيف يمكنني أن أخسر وأنا رجل ومستقبل حاكم؟ أ سبق أن خسر حاكم؟ عندما يتظاهر الشعب ضد الحكومة أتخسر الحكومة؟ بل تتظاهر الحكومة و يصير الشعب أحمقا خاسرا، إن الحكام لا يستسلمون ولا يخسرون فإرادتهم فقط ما ينبغي تحقيقه، إرادتي فقط ما يجب تحقيقه، أنا فقط..

أتم أوناي وكأنه يقرأ أفكاري :

_ "ولا أحد غيرك. "

ثم ابتسم ابتسامة الجوكر خاصته فقابلته بابتسامة أخرى.

المعزوفة 08

اكتشفت عن طريق الصدفة أنني لقيط قد تم التخلي عنه لحظة ولادته، في حين انتشلني والدي الحالي من على الرصيف بعدما تم هجري عاريا هناك فمنحني نسبه وقلبه، لا أنكر أن حاضني قد أحبني في طفولتي وفضلني على باقي إخوتي غير أن قلبي يتوق لمعرفة سبب فصلي عن عائلتي الطبيعية وهجري، أتساءل عن هوية والداي وعن مدى شبهي بهم، ما أسماءهم؟ وهل يحدث أنني قد رأيتهم في مكان ما ولم أتمكن من التعرف عليهم؟ أتملك والدتي شامة كخاصتي الموجودة في ظهري؟ هل أشبه والدي في ترتيب أسناني؟ من الأطول أ أمي أم أبي؟ هل أملك قامة كقامتهما؟ كيف تبدو رائحة أمي؟ ما مدى حنو لمستها؟ أتملك وظيفة؟ ما مدى غنى والدي؟ هل يملك سيارة؟ كيف يبدو منزلهم؟ هل كان لي غرفة خاصة؟ هل أحباني؟ هل أجبرا على التخلي عني؟ لقد ترك موسى أيضا لحكمة.. جعلتني حالتي هذه أشعر وكأنني أعاني من عاهة مستديمة، أحس بألم يعتصر قلبي ولا يمكنني الشفاء منه* ، لم أغضب؛ شعرت فقط بانفصالي عن الحدث وكأنني لست بطله ثم توقفت عن الشعور ومنه عن التفكير، اجتاحتني فكرة وحيدة: لا يمكنني احتمال الألم الناتج عن هذا الخبر، إن دفاعاتي ستنهار قريبا وسيعصرني الحزن، لا يمكنني حماية نفسي لوقت أطول ولا يمكنني الانفصال عن واقعي كل الوقت، سأنهار وستتلاشى روحي بعيدا..

صوت بعيد:

ألشرفة أمامك والشقاء وراءك

أكرر :

_ "الشرفة طبعا... "

ثم بهستيرية:

_ "الشرفة، الشرفة، الشرفة... "

فتحت بابها وركضت إلى الحافة، أغمضت عيناي ثم قفزت وحينما فتحتهما

وجدت سريري مبللا، يا للقرف!

لن تتزوجني سارة إذا علمت أنني قد تبولت أثناء نومي، من يتزوج طفلا؟

أخدت حماما لعله يغسل عاري وأثناء تجفيف شعري أمام المرآة انعكست صورة الشرفة عليها فتذكرت طريقتي الرابعة للموت: القفز من على علو مرتفع، والشرط الأول لتحقيق نجاح هذه العملية هو اختيار مكان مرتفع كفاية ليسبب الموت لا الشلل الرباعي فقط، أما الشرط الثاني فاختيار الوقت المناسب حيث تكون الرياح هادئة حتى لا يطير جسمي بعيدا قبل ارتطامه بالأرض، والشرط الثالث هو اختيار أرضية صلبة للنزول بعيدة عن المناطق السكانية حتى لا يتدخل أحد الأفراد للإنقاذ..

ومن مزايا هذه الطريقة إمكانية إدماجها مع الغرق، فالقفز من على جسر فوق النهر يحقق الطريقتان معا، لكنني ما زلت أتساءل على مدى نجاعتها ونجاعة باقي الطرق، كيف يمكنني الاختيار؟

أخبرتني سارة مرة على أن من المرضى من يستعمل مضادات الذهان بجرعات مفرطة للانتحار وغالبا ما تكون فعالة في إنهاء حياتهم، لكنني

لا أحبذ هذه الطريقة لأنني أحتاج إلى وصفة طبية للحصول عليها وهذا ما لا يمكن تحقيقه، ولا يمكنني طلب ذلك من سارة لأنها ستشك في نيتي.

اتصلت بسارة وسألتها أن تختار رقما من واحد إلى أربعة فاختارت ثلاثة، وكلمة سارة لا تسقط أرضا، الموت شنقا هو مصيري إذن وإنني فخور بذلك..

المعزوفة 07

المعزوفة 06

لم يحبني أحد اليوم، أوناي غائب وسارة لا تجيب على هاتفها.

المعزوفة 05

يبدو أنه من السهل أن تقول بأنك غير موجود، بدلاً من أن تقول، بأنك موجود بطريقة غير مرغوب فيها، وأن يتم تجاهلك تماماً* ؛ لم يتفقد حالي أحد منذ أيام لسبب أجهله، سارة تفصل الخط في وجهي كل مرة ولا أستطيع الوصول إلى أوناي رفيقي الوحيد، والفكرة تختمر في ذهني؛ عندما لا تجد أي شخص لتصنع له كأساً من الشاي، عندما لا تجد شخصاً بحاجتك، عندها أعتقد بأن الحياة قد انتهت* ، إنني أحتاج لروح أخرى للتمسك بها لكنني أعيش فقط كما أكره، وحيدا، لا أحد يحب أن يكون وحيدا، إنني أشاهد انهياري لكنني أقف مكتوف الأيدي، خائبا، إنني أحتاج بالضرورة إلى شخص آخر في حياتي حتى لا أقاد إلى الجنون، لا أريد أن أكون مجنونا..

المعزوفة 04

لم أسمع أي صوت غير صوتي منذ ثلاثة أيام، أحس بالريح تعصب بذهني والأفكار تطفو غير ثابتة وبعض الصور الضبابية تجول في عقلي بين الفينة والأخرى؛ أرى قاعة محكمة وأسمع صوت مطرقة القاضي وهو يعلن الحكم: وأخذا بعين الاعتبار الحالة العقلية للمتهم وسنه فسيتم إيداعه في مصحة الأمراض العقلية بجناح الأحداث مدى الحياة بتهمة القتل العمد مع سبق الاصرار والترصد للمغدور أوناي آلديا. ما الذي يقصده عقلي بهذه الذكرى الطافية فجأة؟ لم يتم ذكر اوناي؟ أيمكن ان يكون تشابها في الاسماء فقط ؟ إلى اي حد يمكن لقاء شخص يملك نفس اسم ونسب آخر؟ كيف يعقل ان يكون اوناي ميتا وقد تناولنا الغداء قبل ثلاثة أيام معا؟ من كان رفيقي طيلة هذه السنوات إذن؟ كيف يمكن ان لا يكون موجودا؟ لا أذكر أن قدماي قد وطأتا محكمة سابقا، فكيف لي أن أشهد ذكرى كهذه؟ من الجاني؟ كيف يكون المتهم حدثا؟ لماذا أرى وجه سارة شاحبا بين الحضور؟ لماذا أرى أمي وأبي يبكيان ووالدا أوناي يرمقانهما بنظرات اللوم والحسرة؟ ألم يكونوا أصدقاء؟ ما الذي يجري بحق السماء؟

المعزوفة 03

لماذا اختفى أوناي؟

المعزوفة 02

إنني في غرفة بيضاء كالتي رأيت في حلمي ليس بها إلا سرير ولحاف ومصباح متدل، لكنني لم أسمع هذه المرة الصوت المنبعث من مكبرات الصوت فلقد علمني الخطوات التي كنت أجهلها، علقت أغطية السرير في السقف بعدما اتخذتها كحبل مشنقة ووقفت على حافة السرير غير أن صوتا بعيدا قد صرخ بي :

_ "توقف"

ثم إلى آخرين لم أرهم قبلا:

_ "محاولة انتحار في الغرفة خمسة وعشرين، أكرر محاولة انتحار في الغرفة خمسة وعشرين. "

يركض خمسة رجال ضخام يلبسون الأبيض تجاهي، يوقعونني أرضا ويلبسونني قسرا قميص التقييد الذي يرتديه المرضى النفسيين في المصحات، ويحقن أحدهم ذراعي فيصبح الصوت بعيدا والصور ضبابية ثم لا شيء غير البياض..

أستيقظ فأجد نفسي مستلقيا على سريري ومقيدا من معصمي، أتفقد المكان فإذ بي في نفس الغرفة البيضاء التي كنت فيها قبل أن أغيب على وعيي، يدخل رجل يلبس الأبيض وبيده حبة دواء وكأس ماء ويطلب مني شربهما، أرفض فيصرخ في وجهي فأشربهما على مضض، يقول بصوت خال من المشاعر :

_ "ستراك الطبيبة بعد عشر دقائق. "

لا أستطيع استيعاب ما الذي يحدث لي ولا المكان الذي أوجد به، أصرخ بأعلى صوتي:

_ "لماذا يتم احتجازي هنا؟ ما هذا المكان؟"

تدخل سارة الغرفة فأستنجد بها بعينين مغرورقتين بالدموع، تحدثت معي وكأنها لا تعرفني وقالت:

_ "لا بأس، ينبغي أن تتأقلم فقط. "

ثم خرجت تاركة إياي غير مدرك لشيء

المعزوفة 01

قسم أمراض المخ والأعصاب والطب النفسي

كلية الطب / مستشفى الأمراض النفسية والعقلية

———

التاريخ :1983/08/03

تقرير طبي نفسي

اسم المريض : جوهان بريدني تاريخ الدخول: 1971/06/21

السن : 25 سنة

الطبيب المعالج : سارة بالتمار

ادخل المريض المذكور أعلاه بتاريخ 21-06-1971 في سن الثالثة عشرة بطلب من المحكمة العليا بعد ارتكابه جريمة قتل، وبعد التحقق من سيرته المرضية وإجراء الفحوصات السريرية والنفسية اللازمة تبين أنه يعاني من ذهان حاد منذ سن العاشرة، وبعد محاولته الانتحار يوم 02-08-1983 تقرر وضعه تحت المراقبة المشددة وتعديل علاجه ويخضع للمتابعة والعلاج

بمستشفى الأمراض العقلية والنفسية إلى حين التاريخ المذكور أعلاه.

مستشفى الامراض النفسية

الدكتورة : سارة بالتمار

أفكر في بدء البشرية, ماذا لو لم نكن البشر الوحيدين الذين مروا على هذه الأرض وكانت هذه البشرية مكررة مرات غير معروفة العدد, ماذا لو انقرض أسلافنا بعدما تطورت حضاراتهم أيما تطور ثم تمت الإعادة من جديد منذ الإنسان البدائي إلى عصرنا الحالي, ماذا لو لم يكن وجودنا محددا في مرة واحدة وكنا نحن من انقرضنا سابقا ثم أعدنا من جديد لنعمر الأرض "عددا لا متناهيا من المرات, ماذا لو لم نكن ؟

لبنى شهبون